السبت 16 أيّار 2020
العدد 4051 السنة الرابعة عشرة
Samedi 16 Mai 2020 no 4051 14ème année

24 صفحة
1000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

سعد الله ونوس...
ذاكرة أقوى
من الموت

عدّاد كورونا: الخوف من المخالطين لا من الإصابات [8]

(هيثم الموسوي)

- «تحرير» الليرة: استسلام مسبق لصندوق النقد
- باريس تسأل: متى ستتخلّصون من سلامة؟
- خطّة المصارف البديلة بأيدٍ صهيونية

[2 ـ 4]

على الغلاف

وزني يعلن الاستعداد لـ «تحرير» الليرة: استسلام مسبق لصندوق النقد

غطاء أميركي لسلامة!

بدل أن تقدّم الحكومة خطة تتناسب مع مصلحة لبنان، أعلن وزير المال أمس استعداد الحكومة للسير في وصفة صندوق النقد الجاهزة لتحرير سعر الصرف، ما سيترك تداعيات خطيرة على القدرة الشرائية وعلى العقود والقروض بالدولار، التي التزم اللبنانيون بها

قطع وزير المال غازي وزني أمس الشكّ باليقين، مؤكّداً أن وزارة المال ومن خلفها الحكومة، تسير في وصفة صندوق النقد الجاهزة، بتحرير كامل لسعر صرف الليرة أمام الدولار. ومع أن وزني في تصريحاته أمس لوكالة الصحافة الفرنسية، تحدّث عن مرحلة انتقالية عبر اعتماد سعر صرف مرن، وربط عملية تحرير سعر الصرف بالدعم المادي الدولي، إلا أنه في نهاية المطاف تحدّث عن سيناريو التحرير الكامل، بما ينبئ بالمخاطر الكبيرة المقبلة على اللبنانيين وعملتهم الوطنية.

فما بيّن ترك السعر ثابتاً وما بين تحريره وتركه سائباً كما توصل خطة وزني في نهاية المطاف، هناك حلول وسط عديدة، من بينها اعتماد السعر المرن دائماً، مع قيام مصرف لبنان بعمليات تدخّل محدودة، بدل أن تترك السوق للمحتكرين والمضاربات، في بلد فالت من الانتظام وتغيب فيه المحاسبة والمعايير الاجتماعية التي تراعي أي عدالة بين السكان.

وكلام وزني، في هذه اللحظة الحرجة بالذات، حيث تنعدم الواردات الداخلية لغياب الإنتاج الصناعي والزراعي والشحّ الكبير من التحويلات المالية في الخارج، يؤكّد أن لبنان فقد فرصة التقدّم بخطة خاصة به تراعي الاقتصاد الوطني وليس الهيكلية المالية فحسب. وبدل ذلك قرر المعنيون اختصار العمل باعتماد وصفة الاستعباد المالي المعدّة مسبقاً ليتم إسقاطها على الدول الفاشلة!

وهذا التفكير بتحرير سعر الصرف، عدا عن انعكاسه على أسعار السلع، فإنه يسبب مضاعفات خطيرة على العقود والقروض، المعقودة سابقاً، ولا سيّما أن هناك العشرات من عقود الإيجار والاقتراض قد تمّت فعلاً بالدولار وستبقى سارية المفعول في المستقبل، فضلاً عن القروض التي استدانتها الأسر والأفراد والمؤسسات بالدولار الأميركي أيضاً، ما يعني تعثّراً كبيراً في تسديدها.

وإذا كانت أسعار المحروقات والدواء والقمح التي يتمّ شراؤها بالدولار، لا تزال منضبطة إلى حدٍ كبير بفعل اعتماد سعر الصرف الرسمي الحالي بمعدل 1507 ليرات للدولار الواحد، فما هي الضمانة مع تحرير سعر الصرف، أن لا ترتفع أسعار هذه السلع ارتفاعاً جنونياً بما يقضي على أي قدرة شرائية للبنانيين لتأمين السلع الأساسية؟

في لقاء المفاوضات الأولية بين لبنان وصندوق النقد قبل يومين، بدا وفد الصندوق واضحاً في طلبه تحرير سعر صرف الليرة، وهو ما أكده وزني في تصريحاته أمس، لتأتي تصريحاته كردّ إيجابي على ما جرى نقاشه في الاجتماع المغلق! مصادر نيابية شاركت في نقاشات لجنة المال والموازنة، اعتبرت موقف وزني «متقدّماً» عن النقاشات القديمة، بشكل سلبي طبعاً. فوزني، وأمام لجنة المال والموازنة، ردّ على سؤال، نافياً أن تكون الخطة قد تبنّت تحرير سعر الصرف. وأوحى لسائليه بأن الخطة استندت إلى الأرقام المتداولة في السوق لتقرّر خياراتها تجاه سعر الصرف، ولم تتبنّ عملياً تحرير سعر الصرف. وتقول المصادر إن «أحداً في الدولة لم يعد مؤمناً بقدرة الدولة على أداء الدور في ضبط سعر الصرف، لأن هذا استنزاف كامل وليس لديها القدرة لذلك، كما أن ترك السوق على حريته، هو سياسة غير حكيمة ومشاكلها كبيرة، ولا نستطيع تحرير السعر بما ينعكس بشكل خطير على السلع الرئيسية». مسألة أخرى تطرحها المصادر النيابية، وتقول إنه خلال النقاشات في المجلس النيابي بعد 17 تشرين، أكّد أكثر من خبير أن تقديرات صندوق النقد الدولي حول السعر الحقيقي لسعر صرف الليرة أمام الدولار هو 2800 ليرة. اليوم، وقبل القيام بأي خطوة، يتعدى سعر الصرف الـ 4000 ليرة، ما يعني أن هناك مبلغاً محسوباً بالارتفاع من سعر الصرف بسبب التسبّب وعمليات المضاربة والاحتكار، وليس بالضرورة بسبب الأوضاع الاقتصادية، وخصوصاً أن الحكومة والأجهزة القضائية لم تصل لغاية الآن إلى نتيجة ملموسة لضبط السوق. ويختم المصدر أن «البلد بحاجة إلى مرحلة انتقالية، لكن في مطلق الأحوال لا يمكن اعتماد تحرير سعر الصرف بشكل مطلق، ومن مهام مصرف لبنان التدخل بطريقة مسؤولة».

نفى وزني امام لجنة المال والموازنة ان تكون الحكومة تخطط للتحرير الكامل لسعر الصرف (هيثم الموسوي)

> **السفيرة الأميركية اتصلت بمسؤولين لبنانيين لتبلغهم بعواقب «الانتقام السياسي من سلامة»**

ومن وزني إلى حاكم مصرف لبنان رياض سلامة وقضية التلاعب بالدولار، التي ستنام في الأدراج على ما يبدو، او سيُقدّم مدير العمليات في المصرف المركزي مازن حمدان، كبش فداء فيها. وبحسب ما علمت «الأخبار»، فإن قرار المدعي العام المالي القاضي علي إبراهيم بعدم استدعاء سلامة إلى التحقيق في مفرزة الضاحية القضائية، لم يصدر لأسباب محض شخصية متصلة بالقاضي نفسه، ولا بسبب الغطاء الداخلي الذي يحظى به سلامة، وحسب، بل إن تدخلاً واضحاً قامت به السفيرة الأميركية في بيروت، دوروثي شيا، ساهم في حماية حاكم مصرف لبنان. وبحسب مصادر معنية، اتصلت شيا بمسؤولين حكوميين، وابلغتهم بوضوح أن «أي انتقام سياسي من سلامة، بذريعة التحقيقات»، ستكون له تبعات كبيرة. وأتى موقف شيا بعد الإشارات التي قيل إنها أوحت بها سابقاً، لجهة استعداد بلادها للبحث في مواصفات المرشّحين لمنصب حاكم مصرف لبنان.

وفيما كان سلامة يؤكّد أمام رئيس الحكومة حسان دياب رفضه التدخّل في السوق، جاء بيان هيئة التحقيق الخاصة بتبييض الأموال (التي يرأسها سلامة) أمس، ليؤكّد أن سلامة يتدخل فعلاً. في الأونة الأخيرة، قفز سعر الدولار من 2500 ليرة إلى أكثر من 4000 ليرة، فلماذا تدخّل بكمية قليلة من الدولارات (باع نحو 12,7 مليون دولار واشترى نحو 11,3 مليون دولار)؟ ولماذا لم يتدخل كما يجب؟ ولماذا تدخّل شارياً؟ والسؤال الأهم، هو هل كان وزني على علم بعمليات المصرف؟ وهل حصلت بالتوافق معه كما تقضي الفقرة «ب» من المادة 83 في قانون النقد والتسليف؟

اختبأ سلامة أمس خلف بيان تقني، ليخفّف من أهمية تدخّل المصرف على أساس أن مبالغ الشراء والبيع التي قام بها المصرف عبر الصرافين لا تتجاوز الـ 25 مليون دولار، وكان هذا المبلغ الصغير نسبياً لن يؤثر على وضع السوق. لماذا إذاً اشترى المصرف الدولارات، وبأي هدف؟ فشراء مصرف لبنان، في هذه اللحظة الحرجة من الصرافين بغير السعر الرسمي، يعطي رسالة خطيرة لهم ويشجعهم على رفع الأسعار، فدور المصرف ليس تقنياً فحسب، بل معنوي بالدرجة الأولى! وإذا كان بيان المصرف، أمس، قد اعترف بقيامه بعمليات البيع والشراء، فلماذا لا يزال حمدان موقوفاً إذاً؟

(الأخبار)

علي إبراهيم: أنا القاضي والمتّهم أنا!

رضوان مرتضى

أن يُمارس المدّعي العام المالي القاضي علي إبراهيم أكثر من وظيفة في وقتٍ واحد، فذلك شأنه، طالما أنّ القانون يسمح له بذلك. أما أن يقوم بدور القاضي والمشتبه فيه في الوقت نفسه، فذلك ما لا يُمكن تفسيره. كيف تناط بالرجل مهمة التحقيق في ملف الصرافين ومصرف لبنان، بجرم التلاعب بالعملة الوطنية ورفع سعر صرف الدولار، فيما يشغل منصب عضو هيئة التحقيق الخاصة لمكافحة تبييض الأموال، التي يرأسها حاكم مصرف لبنان رياض سلامة الذي يرد اسمه في التحقيقات، على أنه أعطى الأوامر لمدير العمليات النقدية في المصرف المركزي مازن حمدان، لشراء الدولار وبيعه للصرّافين؟ ليس هذا فحسب، مارس إبراهيم سلطة الادعاء العام صباحاً ضد الموقوفين في قصر العدل في بيروت، قبل أن ينتقل إلى مقر المصرف المركزي للمشاركة في اجتماع هيئة التحقيق الخاصة برئاسة سلامة، ويشارك في إصدار بيان يُبرّئ فيه المصرف المركزي من التهمة التي ادّعى بها!

> **أي استقلالية للهيئة طالما أن رئيسها هو نفسه حاكم مصرف لبنان؟**

كيف يُعقل أن يُسائِل هذا القاضي رئيسه سلامة في هيئة التحقيق الخاصة، وهي الوظيفة التي رفض إبراهيم تركها والانتقال إلى ديوان المحاسبة، بسبب التعويضات التي تؤمّنها له عضوية الهيئة؟ فحتى شكلاً، يبقى سلامة متقدّماً على إبراهيم في الهيئة، كما يظهر الهيكل التنظيمي للهيئة صورة سلامة فوق صورة إبراهيم! لا يكفي القضاء «دلّا»، حتى يذهب المدعي العام بنفسه إلى حاكم مصرف لبنان بعد التوقيفات عوضاً عن استدعائه للتحقيق ومساءلته. وفي هذا السياق، يقول خبير قانوني لـ«الأخبار»، إن «هناك تضارب مصالح رغم عدم وضوح القانون في هذه النقطة». ويُشير إلى أنّ «قانون هيئة التحقيق الخاصة ينصّ على أنها هيئة مستقلة عن مصرف لبنان»، لكنه يسأل: أي استقلالية طالما أن رئيسها هو نفسه حاكم مصرف لبنان؟ وأي استقلالية في بيان أمس يصدر ممهوراً بشعار مصرف لبنان؟ وعن موقف المدعي العام المالي، يُعلّق الخبير القانوني بالقول إنّ «القاضي يتنحّى عن ملف لمجرد إبدائه رأياً فيه، فما بالك أن يكون يتقاضى راتباً من هيئة يرأسها حاكم المصرف الذي وضعته التحقيقات في دائرة الشبهة في ملف التلاعب بسعر الصرف؟».

بدأت القضية بتوقيف صرّاف، فكان بمثابة رأس الخيط الذي أوقع بنقيب الصرّافين محمود مراد. جهود المحققين أوصلت إلى توقيف 20 صرافاً ووسيط صرافة، قاد أثنان منهم إلى مدير العمليات النقدية في المصرف المركزي مازن حمدان وموظف سابق هو وسام سويدان، على اعتبار أنهما يبيعان الدولار ويشتريانه بشكل غير قانوني. ثم يأتي أحدهما ليعترف في محضر التحقيق بأنه كان ينفّذ أوامر حاكم المصرف، إلا أن إبراهيم، وبدل التوسع في التحقيق لمساءلة الحاكم، يطلب ختم التحقيق وإيداعه إياه.

لم تنته القضية هنا. غداً سيخرج القضاء ليخفّف من وطأة الفعل المرتكب. قد يأتي بما يُشبه الاعتذار عن توقيف مدير في المصرف المركزي ليدّعي عليه بالإهمال الوظيفي. وبالتالي، سيكون هناك «جثة» من دون أن ينكشف القاتل، فتُسجّل الجريمة ضد مجهول!

ابراهيم الأمين

مابديل العدوّ من عجز الحرب الكبرى؟

حالة المراوحة السائدة اليوم في لبنان لا تختلف كثيراً عن حالة المراوحة التي تسود المنطقة، وربما العالم أيضاً. هي ناجمة بالأصل عن تعطل قدرات القوى الكبيرة عن القيام بحركة نوعية. نعيش اليوم على قاعدة توازن كبير نتيجته الأولى عدم قدرة أحد على قلب الطاولة. وعندما حلّ كورونا على الجميع بلا تمييز، أضاف المزيد من القيود. صحيح أنه لا يوجد نقص في الأفكار لدى مؤسسات القرار، لكن الأمر لا يتعلق الآن بالخيال، ولا حتى بتقدير الحلول الفضلى. المشكلة باختصار: غياب أدوات الفعل القادر على قلب الطاولة.

لبنان لا يساوي شيئاً في هذا الخضم. مهما علا الصراخ هنا وهناك، فإن هذا البلد بالكاد يقدر على تدبير قوت يومه. وأيّ وهم يسكن اللبنانيين بقدرتهم على تحقيق خلاص الكون، هو عمل منجّمين كالذين ينتشرون اليوم لمكافحة الوباء بالخرافات. حظ لبنان الجيد، أن ينساه العالم. وحظ لبنان الأفضل أن انتبه أبناؤه إلى فرصة إعادة ترتيب أمورهم، وهي فرصة دائمة، لكنها ستُهدر كغيرها. لأن اللبنانيين «شعب عنيد» يعيش كثير منهم بجهود غيره. لكن حظ اللبنانيين العاثر في كونهم لم ينتبهوا بعد إلى أن العالم لم يعد بحاجة حتى إلى نموذجهم!

> **في مرحلة الانتظار، على الناس التوجّه إلى الاقتصاد الموازي ضمن خطة الخروج من النماذج الفاشلة**

سيكون من الصعب على أهل الإنكار التعامل مع الحقائق كما هي. ففي عالم اليوم، مَن يقدر على إسماع صوته إلى اللاعبين الكبار، هو حصراً مَن يملك القدرة على تحويل قوله إلى فعل قوي. وفي حالة لبنان، ليس بمقدور أحد، سوى المقاومة، فعل ذلك. والمقاومة اليوم، تتصرّف وفق حسابات معقّدة للغاية.

وفرصتها الفعلية تكمن في كسب المزيد من الوقت لأجل توفير المزيد من عناصر القوة التي تحتاج إليها في مواجهات متنوّعة محتمل وقوعها بفعل تهوّر وفجور البعض. أما بقية الناس، ولو هالَهم هذا الكلام أو أغضبهم أو استفزّهم، فجلّ ما يقومون به، هو بالضبط ما يفعله المتزعّمون للجماعات اللبنانية، حيث تدوم ألعاب النفاق، وحيث ينجحون في تمريرها على الناس في أيام القحط كما في أيام العز. وحتى يولد عندنا من يقدر على إسكاتهم بالقوة، ويمنعهم من الكلام لا من العمل فقط، فسيبقون على المسرح، وسيجدون، مع الأسف، جمهوراً كبيراً يسمع ويصفق.

ماذا بمقدورنا أن نفعل، وماذا بمقدور الأعداء أن يُنجزوا؟ أميل إلى الاعتقاد أننا لسنا في موقع المبادرات الكبيرة. أفضل الأشياء هو الإدارة الهادئة للأزمة. ورفع سقف التحديات أمام الحكومات في بلاد مثل لبنان وسوريا والعراق وإيران في سياق مواجهة الأزمات الداخلية، الاقتصادية والاجتماعية. أما فكرة تعديل الوقائع السياسية فهو أمر آخر، متصل بالملف الكبير الخاص بالمنطقة. الملحّ أمامنا اليوم، وخصوصاً في سوريا ولبنان والعراق، هو الشروع في عملية منظّمة ولكن مع قدر عالٍ من المثابرة، للخروج من النماذج الاقتصادية القائمة في بلداننا. والاتجاه قسراً صوب مرحلة تتطلّب بناء الاقتصاد الخاص. وهي عملية صعبة ومعقّدة. تتطلب تعديلات جوهرية في بنية النظام. ويجب القيام بها بشكل مواز لطبيعة القوانين. صار لزاماً على القوى الممثلة لشرائح شعبية متضرّرة من النظام القائم، الشروع في عملية موازية. لم يعد مهماً الحديث عن انقلاب ومخالفة قوانين وتعديلات في آليات التعامل. لم يعد مهماً، لأن من يحرسون النظام القديم اليوم لن يتراجعوا عن آليات منحتهم كل القوة التي بين أيديهم على حساب الناس. وبالتالي، فإن الملحّ هو بناء الاقتصاد الموازي، القائم على شراكات بين هيئات منتخبة (بلديات وأحزاب ذات تمثيل حقيقي وقوى أهلية) وبين قطاع خاص فقد الأمل من النظام القائم، أو هو مضطر لاستثمار ما يملك بطريقة مختلفة. وهذه الشراكات تتيح الانطلاق بعملية بناء قطاعات حيوية في الزراعة والصناعة والتعليم والصحة. ولنترك الآخرين يصرخون طوال الليل والنهار. لنتفق أن أصواتهم، مهما ارتفعت، تمثل في أفضل أحوالها، أنين المحتضر. بينما كل صراخ يصدر من جانب بنيتنا الاجتماعية التي ستتعب في عملية الانتقال، هي عوارض نمو مولود جديد.

من جانب الأعداء، سيواصلون العمل بالطرق التي يعرفونها، ولو مع رفع لمستوى الضربات القاسية واللئيمة. هنا تجدر مراقبة المعركة التي جعلت قوى اقتصادية نفعية في لبنان في موقع الحليف الكامل لمؤسسات الهيمنة المالية العالمية. الأثرياء يعتقدون أن وصفات صندوق النقد والبنك الدولي وتوصيات الحكومات الغربية، إنما تصيب عملياً الإنفاق العام. وبالتالي تعطيهم المجال لمعاودة أعمال السرقة الموصوفة. وهذه المرة، سنجد هؤلاء في موقع الخصم المباشر. سنسمعهم يتحدثون عن تغيير وجه البلاد، وعن محاولة جعل لبنان يشبه الأنظمة الاشتراكية البائدة، وسنسمع من جديد الكلام عن كلفة المقاومة، وعن مخاطر معاندة المجتمع الدولي والعواصم العربية الغنية. هؤلاء لا يملكون سوى هذه المفردات، وسيلجأون إلى كل ما يقدرون عليه من أجل إنهاك الناس. تجويعاً من جهة، وتحريضاً بخلفيات طائفية ومذهبية وجهوية من جهة ثانية، وضربات قاسية تحت الحزام للمؤسسات الاقتصادية الكبيرة، ومنع الحكومات من القيام بواجباتها... كلّ ذلك سيكون حاضراً وبقوة. وسيحظى برعاية خاصة من الولايات المتحدة وأوروبا ودول الجزيرة العربية.

لكن، ثمة نقطة تقاطع غير ظاهرة للعيان، عند كل هؤلاء، تتعلق بتوجيه ضربات قاسية إلى محور المقاومة. وإذا كان مستبعداً، أو متعذّراً عليهم اليوم، القيام بعمل عسكري مباشر يؤدي إلى عواقب كبيرة، فسنجدهم يتوجهون صوب الأعمال الأمنية والتخريبية، إلى جانب المزيد من العقوبات الاقتصادية والمالية والحروب الإعلامية والضغط النفسي على الجمهور.

الجديد النوعي، ما يظهر على شكل ملامح قرار أميركي - إسرائيلي - أوروبي - سعودي، بتوجيه ضربات كبيرة إلى من يعتقد هؤلاء أنهم «أذرع إيران القوية» في منطقتنا. ولذلك، فإن خطر الاغتيالات النوعية الكبيرة يزيد يوماً بعد يوم. ومع ذلك، فمن قال بأن تقديرات العدو نجحت في ما مضى، ولا سيما على صعيد النتائج البعيدة المدى... ومن يقدر على التكهن اليوم بما ستكون عليه الأمور في كل منطقتنا بعد عام من الآن؟ إنها الأيام الأصعب... فلننتبه!

على الغلاف

باريس عن سلامة: متى سيتخلّصون من هذا الرجل؟

(بلال جاويش)

نقولا ناصيف

يكاد القول يصحّ بأنّ حاكم مصرف لبنان رياض سلامة آخر التلاميذ الأذكياء في السلطة الذين خلّفتهم الحريرية السياسية. مدرسة الرئيس رفيق الحريري، فيها حتماً تلاميذ أذكياء، وتلاميذ أوفياء، وتلاميذ كسالى، وتلاميذ انتهازيون هم المستمرّون والأوفر عدداً.

بين التلاميذ الأذكياء مَن هم الآن خارج السلطة، وخارج تيار المستقبل، وخارج الحريرية السياسية نفسها التي لم تعد تشبه الأب الأول. أحدهم وأهمهم الرئيس فؤاد السنيورة، إلى آخرين أذكياء أيضاً حجبوا أنفسهم. بين هؤلاء أيضاً مَن خرج باحترام ووقار، وبينهم مَن أقصي بعدما

بزّي للحاكم: لا أدافع عنك لكنّني لا أريد مشكلة فوق مشكلة

أفرط في ثرائه، وبينهم مَن لم يعد يتحمّل انتفاخه في مرآة ذاته. يصحّ ذلك تماماً على الذين رافقوا الرئيس الراحل في حكوماته ودورتي الانتخابات اللتين شارك فيها (1996 و2000) والذين عدّهم مستشاريه.

وحدهما السنيورة وحاكم مصرف لبنان الدكتور رياض سلامة من تلاميذ المدرسة صمدا بعد غياب مؤسّسها ولا يزالان. الأول بترؤسه الحكومة مرتين وانتخابه نائباً مرة واحدة، وسلامة الذي لا يزال يلزم منصبه منذ 27 عاماً. كلاهما رافقا حقبتَي الحريري الأب ثم الحريري الابن، ووصلا إلى نهاية الطريق أو أوشكا. بالتأكيد لا يصلح القول بأن الحريري الابن هو ابن مدرسة لم يعرفها إلا بعد اغتيال والده، ولم يخلف آباءه إلا بعدما أذنت بذلك الرياض في نيسان 2005، ثم انتزعت منه هذا التفويض في تشرين الثاني 2017.

أكثر من مفارقة، لصيقة بالانهيار الحالي في البلاد، توجب الربط بين معلّم المدرسة وتلميذها آخر المتبقّين فيها:

أولاهما، إسقاط اللّيرة للمجيء بالحريري الأب إلى السرايا عام 1992، هو نفسه أسقط اللّيرة للإبقاء على سلامة في حاكمية مصرف لبنان.

ثانيتها، أن قاعدة الاستدانة التي لم يسبق أن اختبرها لبنان مرة في تاريخه، ولا وقع حتماً تحت عبئها في انتظار ربيع السلام الذي بشّر به الحريري الأب عامي 1992 و1993 مع مؤتمر مدريد ما سيتيح للبنان تسديد ديونه، هي نفسها القاعدة التي أفصح عنها سلامة في مؤتمره الصحافي الأخير (29 نيسان) عندما تحدّث عن توخيه شراء الوقت ريثما تجري الحكومات اللبنانية الإصلاحات البنيوية، فاقرضها بلا حساب.

كلاهما الرئيس الراحل والحاكم الحالي صنعا سابقة الفوائد المرتفعة على أنها رهان يدخل العملات الصعبة إلى البلاد. إبان الحكومة الأولى للحريري سجّلت الفوائد في المصارف أرقاماً قياسية، وعوّلت على غير اللبنانيين أكثر منهم اللبنانيين للحصول عليها، بدءاً بمسؤولين سوريين كبار أبدلوا دولاراتهم بليرات لبنانية من خلال الحريري الأب، ثم استرجعوها منه مع الفوائد الثمينة. صحّ ذلك أيضاً على متموّلين سوريين كبار هم رجال النظام، وعلى شركاء المعادلة الداخلية حينذاك. على نحو مماثل، أعاد سلامة تكرار لعبة الفوائد الكبيرة على أنها جزء لا يتجزّأ من الرهان على الوقت الذي راهن عليه عبثاً رئيس الحكومة الراحل.

ثالثتها، تعميم مفهوم غير مألوف في لعبة الأنظمة والسياسات، بالقول بأن مصير العملة الوطنية مرتبط بالشخص، كأنه كافلها والضامن الفعلي لها. ذلك ما اقترن بوجود الحريري الأب في الحكومتين الأوليين (1992 و1995) قبل أن يُرغم على ترك السرايا عام 1998، فلم تسقط اللّيرة بخروجه من الحكم. النموذج نفسه أحاط سلامة نفسه به، لكن بأسلوب مقلوب تماماً لما فعله الحريري الأب: عوض أن يهدد بالليرة لمنع أي محاولة لإخراجه من منصبه، أسقطها بالفعل كي يقدم نفسه على أنه الوحيد القادر على إعادة الاستقرار إليها. في عام 2020 استخدم سلامة سلاح 1992.

قبل أسابيع قليلة، تلقّت وزارة الخارجية والمغتربين من سفارة لبنان في باريس تقريراً عن محتوى اجتماع عُقد في وزارة الخارجية الفرنسية تناول الوضع النقدي في لبنان وأزمة انهيار اقتصاده، إلى الخطة الإصلاحية لحكومة الرئيس حسان دياب ومدى انطباقها على إصلاحات مؤتمر سيدر. في هذا الاجتماع بدا لافتاً ما قاله الموفد الفرنسي الخاص إلى بيروت، المكلّف متابعة نتائج مؤتمر سيدر، السفير بيار دوكان - وكان زار العاصمة اللبنانية عامي 2018 و2019 - عن حاكم مصرف لبنان تبعاً لما ورد في التقرير، واتّسم بسلبية عالية: «متى سيتخلّصون من هذا الرجل؟».

تبلّغ المسؤولون اللبنانيون فحوى التقرير الذي أرسل إشارة مهمة إلى انتقاد فرنسي حادّ للسياسة النقدية للحاكم، راكم نقمتهم عليه من غير أن يكون متاحاً، لأسباب سياسية محض، إقالته من منصبه. تلا هذا الموقف ما وصل إلى المسؤولين اللبنانيين أيضاً عن إشارات أميركية ليست بمثل التشدّد الفرنسي، إلا أنها لم تضع الرجل تحت مظلة واشنطن. مفاد الإشارات الرسمية والجدية تلك أن ما يهم الأميركيين علاقتهم بالمؤسسات النقدية والمالية والمصرفية اللبنانية وسياساتها وليس الأشخاص. إشارة كهذه، كان من المستحيل توقّعها قبل سنوات تصدر حيال سلامة الذي غالى في جمع جوائز كان يحصل عليها، على أنه مرة أفضل حاكم مصرف مركزي في المنطقة، ومرة أحد أهم حكّام المصارف المركزية في العالم. فإذا الرجل اليوم في وضع محرج، بالكاد يتيح له الدفاع عن سمعته. وقد تكون المكالمة التي أجراها به رئيس مجلس النواب نبيه برّي، بعد تصاعد الحملة على سلامة في الأسابيع الأخيرة والمطالبة بإقالته، خير معبّر عما آلت إليه حاله. عارض رئيس البرلمان إقالته بحجة جاراه فيها أكثر من طرف، منهم حزب الله الذي تحمّس بداية ثم برّد همته. حجة برّي أن من المتعذّر إضافة شغور إلى شغور. في غياب نواب حاكم مصرف لبنان رغم فقدانهم أي صلاحية جدية، وفي غياب مفوّض الحكومة لدى مصرف لبنان المعني بالمراقبة، وكذلك لجنة الرقابة على المصارف، فإن إقالة الحاكم تجعل المشكلة أكثر تعقيداً.

أما ما قاله برّي لسلامة في المكالمة الهاتفية: موقفي منك ليس دفاعاً عنك، بل لتفادي مشكلة أكبر.

بين أيدي المسؤولين اللبنانيين دراسة من 15 صفحة وضعها مستشار قانوني بارز تناول فيها المقتضيات التي تضع بين يدي مجلس الوزراء أسباباً كافية لإقالة سلامة. لا يتوهّم المسؤولون عدم توافر الحجج القانونية الموجبة لاتخاذ موقف كهذا، إلا أن دونه - إلى الآن على الأقل - القرار السياسي المرتبط بمن سيخلفه لا به هو بالذات، وباسترضاء السلطات النقدية الدولية الكبرى وطمأنتها. بل تكاد تكون ثمة سابقة في وجود حاكم لمصرف لبنان في موقع مناوئ لرئيسي الجمهورية والحكومة، كلاهما لا يريدانه، بيد أن موازين القوى الداخلية تؤجل إقصاءه ولا تلغيه.

الرئيس ميشال عون ممتعض من تصرفه غير اللائق حياله: طالبه ببيان عن الأرقام الفعلية لمصرف لبنان، فأرسل إليه سلامة بياناً من 50 صفحة يتعذّر فيها تفسير الأرقام. خابره وطلب منه مجدّداً بياناً مقتضباً. حضر الحاكم إلى الرئيس وسلّمه ثلاث أوراق بخط اليد راكم فيها أرقاماً فوق أخرى في بضعة أسطر كي يستعصي فهمها، قال إنه وضعها على عجل. ليس امتعاض الرئيس حسان دياب أقل وطأة منذ سمع المؤتمر الصحافي لسلامة في 29 نيسان، قائلاً بأن لا موجب للتنسيق بينه والحكومة، كما لم يستجب لطلب تدخّله في سوق القطع.

ما شكا منه دياب عبّر عنه أخيراً وفد صندوق النقد الدولي في تفاوضه مع الوفد اللبناني (مصرف لبنان في عداده)، عبر الاتصال بالفيديو: يصرّ صندوق النقد على الحصول على الأرقام الحقيقية في حسابات مصرف لبنان، ملقياً شكوكه حيال الأرقام التي وصلت إليه، ما أخطر صندوق النقد محاوريه اللبنانيين أن أرقام مصرف لبنان الصادرة عنه غير مؤيّدة من أي جهة دولية تمنحها صدقيتها.

خطّة سلامة والمصارف البديلة بأيدٍ صهيونية

بضغط من حاكم مصرف لبنان رياض سلامة، أنهت جمعية المصارف عقدها الاستشاري مع شركة «هوليهان لوكي» وتعاقدت مع التي يمثّلها كارلوس «GSA» شركة أبادي وان-لور كيشيبل. المشكلة ليست حصرافي أنهما صديقان لسلامة. بل بميل أبادي الواضح والمعلن للصهيونية. وبكونه مداناً مرتين من الهيئة الناظمة للصناعة المالية في أميركا وموقوفاً عن العمل هناك. العقد معهما يهدف إلى وضع «خطّة بديلة لخطة الحكومة»!

محمد وهبة

تعتقد جمعية المصارف أنها قادرة على قلب الطاولة على الحكومة وخطّة التصحيح المالي، من خلال خطّة بديلة يرسم معالمها أصدقاء حاكم مصرف لبنان المتصهينون علناً. فما قاله ممثل الحاكم في الجولة التفاوضية الأخيرة مع صندوق النقد الدولي الذي كان بمثابة «طعن» فريق التفاوض بظهره، ليس سوى ضربة البداية التي يعدّ لها سلامة والمصارف، والتي ستليها ضربات إضافية لا تحترم وحدة القرار المركزي في الدولة ممثلة برئاسة الجمهورية والحكومة ومجلس النواب.

قبل فترة، برزت مؤشرات على أن سلامة والمصارف أوقفا لعبة توزيع الأدوار وتبادل الاتهامات تمهيداً لبدء المعركة ضدّ خطة الحكومة بشكل ممنهج وموحّد. من أبرز هذه المؤشرات، ما ورد من نقاشات في اللقاء الشهري الأخير بين المصارف وسلامة. يومها «تحفّظ الحاكم عن المنهجية المستعملة في مقاربة ومعالجة الخسائر المزعومة لمصرف لبنان الواردة في الخطة الحكومية لمعالجة الأوضاع المالية وأن مصرف لبنان لم يشترك بوضع هذه الخطّة، ورأى أن غالبية الاقتراحات تستوجب دراسة قانونية ودستورية دقيقة وأن مصرف لبنان والمصارف هي، حتى إشعار آخر، خاضعة لقانون النقد والتسليف» بحسب ما ورد في محضر اللقاء الصادر بالتعميم 94.

تحفظ مندوبه ضمن الفريق اللبناني للتفاوض مع ممثلي صندوق النقد الدولي. مندوبوه طعنوا فريقهم بظهره وأبلغوا ممثلي الصندوق أنهم لا يعترفون بخطة الحكومة وأنهم لم يشاركوا فيها، لا بل إنهم يعدّون خطّة بديلة أو دراسة بديلة للخسائر سيعرضونها على الصندوق (لا أحد يعلم إذا كانوا سيعرضونها قبل ذلك على رئاسة الحكومة أو على وزير المال أو على فريق التفاوض اللبناني، مع أن قانون النقد والتسليف واضح في هذا المجال إذ تنصّ المادة 72 على الآتي: للمصرف أن يقترح على الحكومة التدابير التي من شأنها التأثير على ميزان المدفوعات وعلى حركة الأسعار والمالية العامة وعلى النمو الاقتصادي بصورة عامة. ويطلع المصرف الحكومة على الأمور التي يعتبرها مضرّة بالاقتصاد وبالنقد، ويؤمن علاقات الحكومة بالمؤسسات المالية الدولية».

جوهر هذه المادة يتعلق بالتعاون الذي يفترض أن يبديه سلامة مع الحكومة، وهو تعاون مفقود، لكن أن تصل القصّة إلى «الطعن بالظهر»، فذلك أمر مختلف تماماً.

على أي حال، إن كلام سلامة في اللقاء الشهري أوحى بأنه لن يخضع لخطّة الحكومة وأن ممارساته ستبقى في إطار استنسابيته للصلاحيات التي نصّ عليها قانون النقد والتسليف في ظل غياب مجلس مركزي ولجنة رقابة على المصارف.

(هيثم الموسوي)

سلامة وفريقه لها، لذا ارتأت الجمعية أن تتعاقد مع شركة «GSA» التي يمثّلها آن-لور كيشيبل، وكارلوس أبادي».

ما حصل عملياً، هو أن سلامة والجمعية فرضا على هوليهان لوكي الانسحاب من أجل التعاقد مع الشركة الثانية «GSA». هذا الأمر تم بالاتفاق بين سلامة ورئيس جمعية المصارف واللجنة المصرفية المعنية في الجمعية، يقول مصدر مطلع. للمفارقة أن «GSA» هي الشركة التي كان يحاول سلامة فرضها على الحكومة كمستشار مالي بدلاً من شركة «لازار»، إلا أنه فشل في ذلك بسبب الإهانات التي وجّهها أبادي للرئيس نبيه بري على «تويتر» (قال عنه إنه جاهل) ثم حذفها لاحقاً.

يومها، لم تكن المعطيات واضحة عن هذه الشركة وممثليها، بل كانت هناك ضبابية تحيط بهم وبعلاقتهم مع سلامة. «لعلّهم أصدقاء فقط» يقول مصدر مطلع، «لكن القصّة لا تتعلق بالصداقة، بل بممارسات أبادي المعلنة، ومنها مثلاً موافقته التي يعبّر عنها على حسابه على موقع «تويتر»،

مخالفة أبادي جناية وليست جنحة... ما أدّى إلى وقفه عن العمل

وبوقائع صادرة عن هيئة رقابية في أميركا؛ إذ إن أبادي لا يخفي على التويتر ميوله الصهيونية وعلاقته بالجمعية اليهودية الأميركية التي تكنّ عداءً واضحاً للمقاومة. وهو يعيد «تغريد» غالبية ما يقوله جيش العدو الإسرائيلي، وما تقوله تلك الجمعية عن فلسطين والمقاومة... لكن أبادي يغدق الكثير من الإعجاب على هذه الأكاذيب الصهيونية».

وهذه ليست المشكلة الوحيدة، لأنها لن تكون المرّة الأولى التي يستعين فيها سلامة وجمعية المصارف بصهاينة أو بمتصهينين. المشكلة الأخرى أن الهيئة الناظمة للصناعة المالية في أميركا سجّلت في بياناتها الرسمية المعلنة أنه مدان بالحصول على أموال بشكل غير مقبول وتقديم معلومات مضلّلة أو كاذبة، واكتساب أموال غير شرعية، وأنه أجرى تسوية دفع بموجبها غرامة بقيمة 200 ألف دولار. وفي 2017 حظرته الهيئة نهائياً عن العمل لأنه خرق قواعد الاستثمار: «من دون الاعتراف أو الإنكار بالتهم المنسوبة إليه، وافق كارلوس أبادي على العقوبة... شبهات حول تحويلات مالية انخرطت بها الشركة التي يملكها والشركات التابعة لها أو المملوكة منها بشكل غير مباشر أو بسيطر عليها». ويشير موقع الهيئة إلى أن مخالفته جنائية وليست جنحة، ما أدّى إلى وقفه عن العمل.

بحسب مصدر مطّلع، فإن هذه المعطيات تبلّغتها جمعية المصارف، إلا أنها أجرت عملية فصل شكلية وأبقت كل أعمال أبادي قائمة ومدارة من الخارج ليضع اللمسات الأخيرة على الخطّة التي أعدّها لهم. ففي عزّ الإفلاس، يعمل سلامة وجمعية المصارف على تبديد أموال المودعين على شركة لا طائل منها سوى معاداة المقاومة، وهي ليست قريبة من مراكز صنع القرار في أميركا، بل هي ممنوعة هناك.

تقرير

وزير التربية يتّجه لتعليق العام الدراسي؟

فاتن الحاج

في مقابل إصرار الأهالي على عدم إرسال أولادهم إلى المدارس خوفاً على صحتهم وسلامتهم العامة، جرى التداول في الساعات الأخيرة في إمكانية أن يعلن وزير التربية طارق المجذوب تعليق العام الدراسي واستكماله في أيلول، بناءً على توصية لجنة التربية النيابية في جلستها الأخيرة. ومن المقرر أن تعقد اللجنة جلسة ثانية الثلاثاء المقبل لأخذ التوجّه النهائي بالنسبة إلى الامتحانات الرسمية لشهادة الثانوية العامة.

وينتظر أن يعقد الوزير مؤتمراً صحافياً لإعلان القرارات الجديدة وخصوصاً أنّه، وبحسب ما علمت «الأخبار»، طلب من المركز التربوي للبحوث والإنماء تزويده بدراسة حول الامتحانات الرسمية وتحديد المحاور الدراسية المطلوبة في كل مادة من المواد، وما إذا كانت هناك إمكانية لحذف بعض المحاور.

إلى ذلك، بات يقيناً لدى اتحادات لجان الأهل في المدارس الخاصة أنّ قرار وزير التربية الخاص بإعداد ملاحق للموازنات بهدف خفض الأقساط لم يصدر لينفذ. فالقرار المطبوع في 4 الجاري، أي بعد يوم واحد من الاتفاق بين ممثلي الأهل والمعلمين والمدارس، لم يوقّعه الوزير قبل 10 الجاري ثم أحاله على مصلحة التعليم الخاص في 12 منه لتتبلغ به المدارس في هذا التاريخ، علماً بأن المهلة المعطاة لإيداع المصلحة الملاحق تنتهي في 22 الجاري، أي أن الوقت المخصص لإعادة دراسة الموازنات لا يتجاوز 10 أيام، تتخلّلها الأيام الأربعة للإقفال العام.

مصادر اتحاد لجان الأهل وأولياء الأمور قالت إن القرار لا يتجاوز «رفع العتب»، وخصوصاً أن وزير التربية وقّع على المحضر الرسمي الذي يتضمّن إصداره قراراً يضع فيه ضوابط لإعادة دراسة الموازنات في ضوء التعطيل القسري تمهيداً لخفضها. إلا أن «كارتيل» المدارس ضغط، بحسب المصادر، باتجاه نكث الاتفاق، لأنّه إذا تبيّن أن هناك إمكانية لخفض الموازنة فإن ذلك سيكشف المستور لجهة المبالغات في أرقامها. وفي خلال هذا الوقت القصير، لن تتمكن لجان الأهل والهيئات المالية من إعادة النظر في الموازنات.

قرار إعداد ملاحق بالموازنات المدرسية لم يصدر لينفذ (هيثم الموسوي)

بسم الله الرحمن الرحيم
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ
صدق الله العظيم
بمزيد من التسليم بقضاء الله، ننعى إليكم الحاج الفاضل

أسامة زيد الكاظمي

الذي وافته المنية الثلاثاء الماضي الموافق 12 أيار 2020.
ودفن في اليوم نفسه في مدافن بلده الكويت.
تميز الراحل بدور انساني كبير، وعرف بأنه شخصيّة رسالية كانت لها بصمات خير في كل مكان وخصوصاً في لبنان والكويت.
إننا في الوقت الذي نشارك فيه أهل الفقيد عزاءهم بفقد هذه الشخصية الكبرى وفي هذه الظروف الصعبة، نسأل الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يسكنه الفسيح من جنته وأن يلهم ذويه ومحبيه الصبر وعظيم الأجر.
جمعية المبرات الخيرية
مؤسسة السيد محمد حسين فضل الله للخدمات الاجتماعية

قضية اليوم

الخلوي في أحضان الدولة: المحاصصة ممنوعة

التسليم والتسلّم بين شركتَي «زين» و«أوراسكوم» المشغّلتين لشبكتَي الهاتف الخلوي من جهة، ووزارة الاتصالات لا يفترض أن يتأخّرا. الخطوة الأولى ستكون في تعيين مجلسَي إدارة جديدين، على أن يليها إجراء جردة للموجودات في الشركتين. لكن إلى ذلك الحين، على الوزارة أن تتخطّى مطبّ المحاصصة، فهل تنجح في ذلك، وتؤول الإدارة إلى من يستطيع فتح الدفاتر، وكشف مغاور القطاع؟

إيلي الفرزلي

لم يقفل بعد ملف استرداد قطاع الخلوي. ما حصل أن وزير الاتصالات طلال حواط استدعى إدارتي شركتي أوراسكوم وزين يوم الاثنين الماضي، لإبلاغهما بنيّة الدولة اللبنانية استرداد القطاع. بحسب قرار مجلس الوزراء، لا مهلة محددة للاسترداد، لكن عندما طُرح الأمر على «ألفا» كان الرد مفاجئاً للوزارة: مستعدّون للتسليم فوراً، بمجرد إنجاز المخالصة في الحسابات. بحسب المعطيات المتداولة، فإن الوزير لم يكن جاهزاً للتسلّم، فلم يحدد أمام الشركات أي موعد. سريعاً، طار رئيس أوراسكوم نجيب ساويرس إلى بيروت، ليؤكد للوزير ما سمعه من المدير العام لألفا مروان حايك، متمنّياً للبنان ولقطاع الاتصالات دوام التوفيق والتقدّم.

> **آلية استرداد قطاع الخلوي لم تتبلور بعد**

لم تكن العملية بهذه السلاسة بالنسبة إلى «زين» التي تدير شبكة «ميك 2» («تاتش»). تأخير دفع رواتب نيسان للموظفين فُسّر تعبيراً عن الاعتراض على التسليم. وليس الأمر متعلقاً بعدم تحصيل الشركة لمستحقاتها من الدولة. في الأشهر السابقة، لم تحصل على أموالها لكنها مع ذلك دفعت الرواتب، فبحسب العقد هي المسؤولة عن دفع مستحقات الموظفين، على أن تحصّلها من الدولة. التأخير بالتحصيل لا يعفيها من واجبها تجاه الموظفين. الأمر الآخر الذي أثار الريبة كان حضور المحامي عماد حمدان مع وفد «تاتش». حمدان كان محامي الشركة في عهد مديرها العام السابق، لكن الأخير ألغى عقده، إلا أن حمدان لم يسلّم بالواقع. حرّك ملفات كانت نائمة، وفُتح التحقيق بالعقود والمناقصات. بالنتيجة، وفي عهد الوزير جمال الجراح، نجح حمدان في تحصيل تعويض يقدّر بمليون دولار، دفع من المال العام، مقابل إغلاق الملفات التي كان قد فتحها والتنازل عن السهم الذي يملكه. سياق الأمور أدى إلى عدم تنازله عن السهم، واستمر النزاع مع الشركة، حتى فتحت النيابة العامة في ديوان المحاسبة ملف الفساد في الشركة، وكان هو شاهداً أساسياً.

لم يقفل الملف بعد، لكن شركة «زين» ارتأت الاستعانة بخدمات حمدان مجدداً، فعيّنته مستشاراً قانونياً لها. بهذه الصفة، حضر الاجتماع مع وزير الاتصالات، وهو الاجتماع الثاني الذي يعقده مع حواط ممثلاً للشركة.

بالرغم من هذين الاجتماعين، وبالرغم من الرسالة التي أرسلتها الوزارة للشركتين في السادس من الشهر الجاري (بعد يوم واحد من اطلاع مجلس الوزراء على نية الوزارة استرداد القطاع)، بدا جلياً أن الوزارة لا تملك خطة واضحة للتسلّم. وهنا ليس مهماً إن كانت تلك الرسالة هي لإبلاغ الشركتين بقرار الاسترداد، كما تقول مصادر الوزارة، أو دعوة إلى الاجتماع، كما تقول مصادر الشركتين. النتيجة واحدة، وقد أبلغت إلى كل من يهمه الأمر: قطاع الخلوي عائد إلى الدولة. وهذا فعل بديهي، تحول ثوري بفعل مساعي الوزارة السابقة والحالية التمديد للشركتين. فالعقد انتهت مدته، وبحسب هيئة الاستشارات والتشريع، كان يتوجّب على وزير الاتصالات، بشكل فوري وتلقائي، اتخاذ الإجراءات الإدارية والعملية كافة لتسلّم القطاع، منذ الأول من كانون الثاني 2020. مرّت أربعة أشهر حتى اتخذ القرار، لكن تبقى الإجراءات التي لم تتضح بعد معالمها.

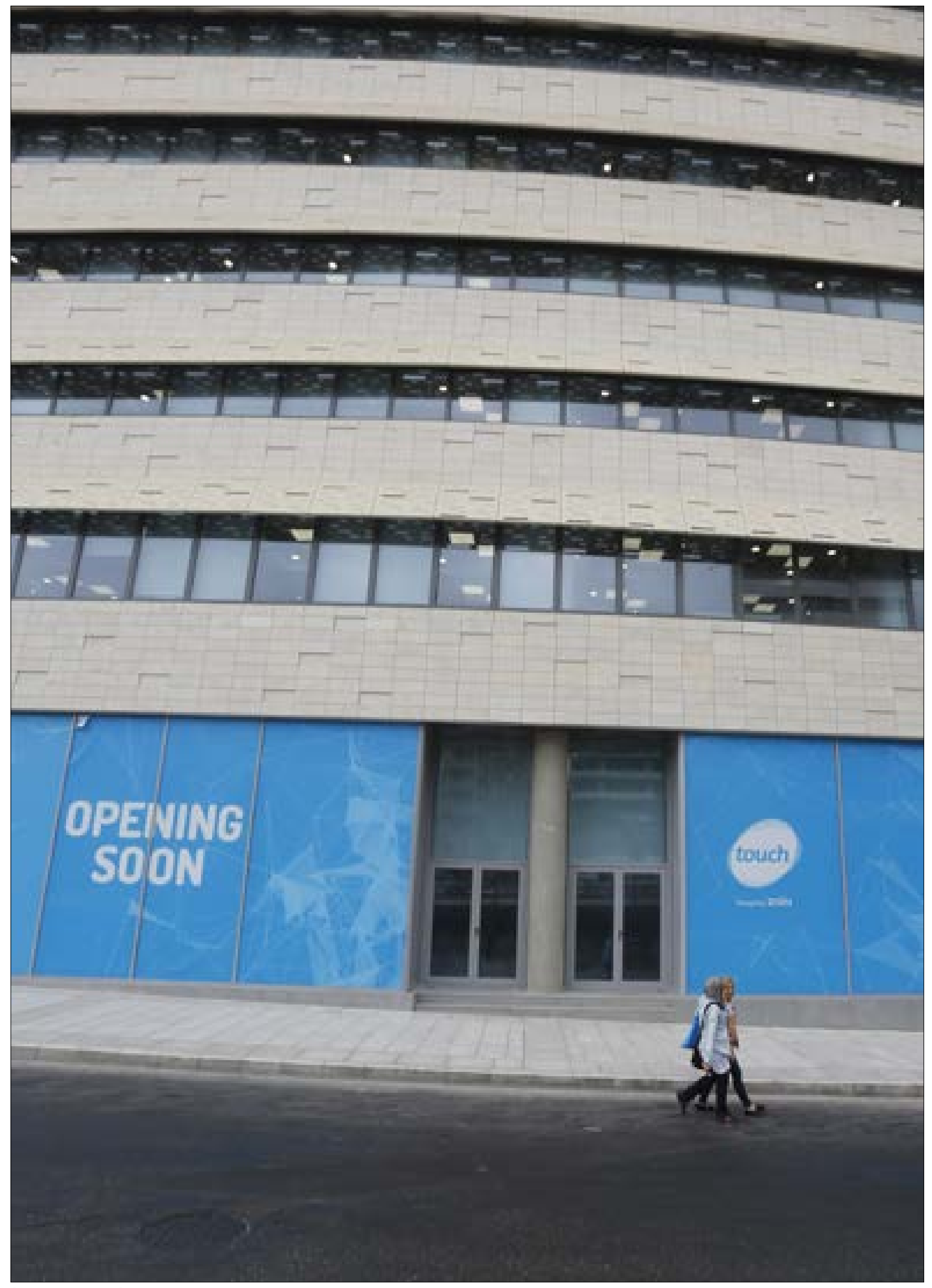

(مروان طحطح)

العودة إلى الاستشارة القانونية تشير إلى أن تتسلّم «وزارة الاتصالات بواسطة المديرية العامة للاستثمار والصيانة مهمة الإدارة، من دون الحاجة إلى أي ترخيص أو موافقة يصدران عن أي مرجع آخر، سواء في السلطة التنفيذية، القضائية أو التشريعية». لكن مصادر متابعة تقلّل من أهمية الآلية، معتبرة أن ما سيحصل قانوني بحت. والقانون يفرض على أي شركة مساهمة أن يكون لها مجلس إدارة. وهذا المجلس يفترض أن يعيّنه الوزير في هذه الحالة. لكن هنا تتضارب الآراء. هل يحق لموظفين في الوزارة أن يكونوا أعضاء في هذا المجلس؟ مصدر في الوزارة يؤكد أن الأمر ممكن، طالما أن الوزارة هي في النهاية مالك الشركة، ومصدر آخر ينفي الأمر انطلاقاً من أنه لا يجوز أن يعمل موظف قطاع عام في شركة خاصة في الوقت نفسه.

في مطلق الأحوال، يتوقع أن لا يتأخر وزير الاتصالات في تعيين مجلس إدارة لكل من الشركتين، يفترض أن لا يقل عدد أعضائه عن ثلاثة، بحسب القانون. كلمة تعيين تفتح مباشرة باب المحاصصة، فهل هذه هي الحال في الخلوي؟ يقول مصدر مطلع: أنت في لبنان، ومساعي تمرير بعض الأسماء قد بدأت، لكنْ ثمة سعي جدي لأن يكون الاختيار تقنياً بما يؤدي إلى منع التدخلات السياسية، أو التخفيف منها. طبعاً، الأمر ليس محسوماً، لا في مجلس الإدارة ولا في المناصب التنفيذية. هنا تجزم مصادر مطلعة أنه كلما كان المعيار موضوعياً، قلّت التدخلات. على سبيل المثال، يمكن اختيار بعض أعضاء مجلس الإدارة من مالكي الأسهم أنفسهم، كما يمكن ترقية المديرين الذين كانوا المرؤوسين المباشرين للمديرين الموظفين في زين أو أوراسكوم، لتسلم مناصب رؤسائهم، أو تفويضهم بمهامهم، على أن يتم الاتفاق على حدود هذا التفويض، بما يوائم بين مرونة العمل داخل الشركات ووصاية وزير الاتصالات. هنا، لا بد من الإشارة الى أنه لا دور لهيئة مالكي القطاع في أي آلية قد تتبع. وجود تلك الهيئة جزء من عقد الإدارة الموقّع مع الشركتين، وبانتهاء العقد ينتفي وجودها.

ثمة من لا يكترث لآلية إدارة القطاع من قبل الوزارة، انطلاقاً من أن تلك فترة مؤقتة، ينبغي خلالها البدء في إعداد دفتر شروط جديد لمناقصة جديدة. لكن إلى ذلك الحين، يدعو مصدر نيابي مطّلع إلى أن يكون التدقيق في كل حسابات الشركتين على رأس أولويات مجلس الإدارة الجديد، انطلاقاً من أن المشكلة لم تكن تقتصر على المبلغ الذي تتقاضاه كل شركة بدل إدارة، بل تطال كل العقود التي وُقّعت على مدى سنوات.

تقرير

200 ألف ليرة لم تعد تسدّ «جوعة»

مساعدات فقراء بيروت عالقة بين الديوان والبلدية

عندما قرّرت بلدية بيروت تقديم قسيمة شرائية لفقراء المدينة كانت قيمة ذلك المبلغ كافية للحديث عن «مساعدة اجتماعية». أمّا اليوم، وبعد خمسة أشهر، فلم تعد تلك القسيمة تسدّ «جوعة»، فيما ملفها لا يزال عالقاً في ديوان المحاسبة الذي يطلب من الفقراء وثيقة «فقر حال» تُثبت أنهم محتاجون

راجانا حمية

منذ خمسة أشهر، وفقراء مدينة بيروت ينتظرون خبراً عن المساعدات الاجتماعية التي أعلنتها بلدية مدينتهم. منذ الإعلان، وأوراق تلك المساعدات تجوب من مكتب إلى آخر، من دون جواب نهائيّ بعد عن الموعد الذي يُفترض أن تصرف فيه مساعدة المليارات الثمانية التي من المقرّر أن تأتي على شكل قسائم شرائية توزّع على 40 ألف عائلة.

عندما أعلن المجلس البلدي عن «مبادرته»، كان الوعد بأن تُصرف الأموال «قريباً». مرّ عيد الفصح وبعد أيامٍ قليلة يأتي عيد الفطر، ولم يُحلّ بعد لغز «حجز النفقة» الذي لا يزال مثار جدل بين ديوان المحاسبة والمجلس البلدي. آخر فصول تلك السلسلة هو الكتاب الذي أرسله الديوان في السابع من الجاري يسأل فيه عن «طلب حجز الاعتماد» الذي لم يرِد بين الأوراق التي قدّمها مجلس بلدية بيروت من ضمن بنود الموازنة، إضافة إلى أمور أخرى لم يعمل المجلس على تأمينها، علماً أنها «من البديهيات»، بحسب المصادر.

في الشقّ المتعلّق بالنفقة الضائعة، يشير كتاب الديوان إلى «مشكلة تقنية» تعذّر معها إدخال موازنة المجلس البلدي وبالتالي حجز النفقة. وهو ما تؤيده مصادر في المجلس البلدي، لافتة إلى أن «دائرة التصفية في الإدارة لم تستطِع إدخال موازنة عام 2020 بسبب تخطّي بعض البنود، كبندَي المحروقات وساعات العمل الإضافية، السقوف الموضوعة لها». وتشير المصادر إلى أنه جرى تعديل بعض البنود لناحية تخفيف المصاريف، وأُرسل الملف إلى وزارة الداخلية والبلديات «التي وافقت على التعديل». لكن حجز النفقة ليس «التجاوز» الوحيد الذي ارتكبه المجلس البلدي. فبحسب كتاب الديوان، بدا المجلس عارياً ومقصّراً إلى حدّ الاستهتار: لا معلومات عن الأشخاص المستفيدين من المساعدات ولا حتى عناوين سكنهم، آلية توزيع مبهمة، عدم تحديد الشركة المُزمع التعاقد معها وإرفاق المستندات المتعلّقة بها من براءة ذمة ضمان...

والأنكى من ذلك كلّه أن رئيسة لجنة الشؤون الاجتماعية، وهي الركن الأساس في الملف، لم توقّع على الملف! غير أنّ هذه المسؤولية التي يتحمّلها المجلس ليس معفياً منها الديوان الذي كان في رقابته المسبقة «ملكاً أكثر من الملك»، وأشبه «بوضع العصي في الدواليب» في هذا الملف بالذات الذي يتعلّق بمساعدة الفقراء على ما يقول متابعون للملف.

> **في هذا الملف بالذات الذي يتعلّق بمساعدة الفقراء يبدو الديوان أكثر تشدّداً**

(مروان بو حيدر)

والحديث هنا عن إفادات فقر الحال، إذ يطلب الديوان من البلدية 40 ألف «وثيقة» تُثبت فقر الطالبين لقسيمة شرائية بقيمة 200 ألف ليرة لم تعد تسدّ اليوم «جوعة». والأنكى من ذلك، هو طلبه براءة ذمّة مالية وضماناً وإذاعة تجارية وكفالة حُسن تنفيذ لشركة لم تتعاقد معها البلدية! وفي هذا الإطار، تشير المصادر إلى أنه «لن يكون سهلاً على البلدية طلب مثل تلك التفاصيل من شركة نبادلها القسائم بالدين، فالبلدية لن تدفع المبلغ دفعة واحدة وإنّما بالتقسيط». بالطبع، ليس المطلوب من الديوان التغاضي عن تلك الأوراق التي سيحجز بموجبها جزءاً من المال العام. لكن «ثمة ظروف اقتصادية ومالية تفرض الإسراع في تسيير ملف مساعدة إنسانية وليس مناقصة أو صفقة»، تقول المصادر التي تستغرب استنسابية تلك الرقابة، ففي وقت تمر ملفات بملايين الدولارات خلال أيام في الديوان كما في المجلس البلدي، ومنها على سبيل المثال «ملف الزينة» لجمعية «بيست»، يقف ملف مساعدة فقراء بقسائم شرائية جامداً منذ أسابيع، علماً أنّ كل تأخير يجعل المساعدة المقرّرة بلا قيمة فعلية. إذ أن ما كانت تشتريه الـ 200 ألف قبل خمسة أشهر لا تشتري ربعه اليوم. أضف إلى ذلك أن ما دفعه الفقراء لقاء تحضير ملفاتهم صار يساوي ما سيأخذونه اليوم في ظلّ أزمة فلتان الأسعار. وقد تصبح لا شيء، إذا ما تأخّر بتّ الملف أكثر. وبحسب المتابعين، فإنّ رئيس البلدية جمال عيتاني قصد ورئيسة لجنة الشؤون الاجتماعية قبل يومين الديوان «والتقى رئيسه حيث ذللوا بعض العقبات»، وإثر تلك الزيارة «أرسلت البلدية جواباً وأرفقته بالتعديلات إلى الديوان، على أن ينظر فيه الأخير مطلع الأسبوع المقبل». وإذا ما وافق الديوان «يمكن القول إنه خلال فترة العيد ستُصرف المساعدات، خصوصاً أن البطاقات مطبوعة وجاهزة للتسليم». أما إذا لم يوافق فـ«الأكيد أن لا حلّ قريباً».

تقرير

هل تخضع وزارة البيئة لـ«كارتيل الإسمنت»؟

تحاول شركات الإسمنت، لا سيما تلك العاملة في الكورة، الاستحصال من وزارة البيئة على مهلة أربعة أشهر لاستكمال أعمال تشويه البيئة وتدمير الطبيعة في القضاء. فهل يلتزم الوزير دميانوس قطّار خط الإصلاح البيئي أم أنّ لـ«كارتيل الإسمنت» اليد العليا في تحديد مستقبل بيئي مظلم للبنان؟

سمر نجار

مع كلّ الانهيار الاقتصادي والاجتماعي والأزمات البيئية والتدمير الممنهج للطبيعة، لا تزال المقالع تتمدّد كالسرطان على مدخل محافظة الشمال، صعوداً نحو قضاء الكورة المنكوب بيئياً وزراعياً. تلال الكورة الخضراء، حوّلتها شركتا الإسمنت («هولسيم - لافارج» و«السبع»)، بدءاً من بلدة كفرحزير إلى بدبهون، من تراب أحمر خصب إلى «كلينكر» ثم إسمنت. سرطان الشركات لم يطَل المشاعات فحسب، وإنّما أيضاً الأراضي التي اضطر أهلها إلى الابتعاد عنها، فقُلع زيتونها وتحولت إلى مستنقعات بفعل أعمال الحفر وسرقة التربة. الجريمة ممتدّة منذ ما قبل الحرب الأهلية. إلّا أنّ القانون الذي صدر عام 1993، بدفع من الرئيس رفيق الحريري والنائب السابق وليد جنبلاط، لمنع استيراد الإسمنت، بذريعة إعادة إعمار لبنان، فاقمها وقوننها، حتى انتشرت المقالع والكسارات على كامل المساحة اللبنانية.

في الأيام الأخيرة، كانت الشركات تحاول الحصول على مهلة «مؤقّتة» (كالعادة) من وزارة البيئة لاستكمال أعمال الحفر (بدءاً من 10 أيار الجاري ولمدة أربعة أشهر). وبحسب المعلومات، فإن اتّصالات عدة جرت بين وزير البيئة دميانوس وأكثر من طرف، على أن يُطرح الأمر على مجلس الوزراء، وسط ضغوط مستمرة للحصول على المهلة.

السؤال الأهم، هو عن سبب إصرار شركات الترابة على مواصلة أعمالها في ظلّ إجراءات التعبئة، على رغم امتلاكها مخزوناً يكفي لثلاث سنوات بوتيرة السوق المعتادة، ما يعني أن هذه المؤونة أكثر من كافية في المرحلة المقبلة، مع حالة الركود المتوقّعة في سوق البناء!

ومعلوم أن الشركات التي تحتكر سوق الترابة، وتتوزّع على الطوائف بشكل فاضح، عملت على زيادة إنتاجها من 4500 طن يومياً عام 2003 إلى 14000 طن يومياً عام 2017. وبحسب التقديرات الأوّلية، فإنّ أرباح أيّ شركة لا تقلّ عن مليون دولار يومياً.

وينتشر في لبنان حوالى 7000 مقلع عشوائي، قلّة قليلة منها حاصلة على التراخيص اللازمة، وبعضها تلاعب بالتقارير البيئية للحصول على الترخيص. وإذا كان المقلع المرخّص خاضعاً للملاحقة عملاً بقانون تنظيم المقالع والكسارات، فالسؤال هو عن كيفية تعامل الدولة مع المقالع غير المرخّصة التي يعمل الكثير منها بلا حسيب أو رقيب.

بلدية كفرحزير هي الوحيدة في الكورة التي سمحت للشركات بقلع أراضيها. المجلس البلدي الحالي حرّر ضبطاً واحداً يتيماً بحق أصحاب المقالع اللاشرعية(!) ما أدى إلى استقالة ثلاثة أعضاء من البلدية اعتراضاً على التساهل مع أصحاب المقالع. وكانت البلدية طلبت من الشركات إرسال رخصها للعمل في المقالع، فاستندت «هولسيم» إلى ترخيص يعود إلى عام 1936، علماً أن الرخص تتجدّد سنوياً، فيما ادّعت «السبع» أن مقالع شركات الإسمنت مستثناة من قرارات منع العمل في المقالع غير الشرعية، مستندة في موقفها إلى دعم محافظ الشمال رمزي نهرا. أمّا في بدبهون، فلا بلدية من أساسه، وباتت شركة «السبع» تملك نصف أراضي البلدة التي قلّع جزء من أتربتها وحجارتها من دون ترخيص! كما أغلقت الشركة العديد من الطرق الزراعية في البلدة للقيام بأعمالها بعيداً عن أعين المواطنين، ما يسبّب نزاعات مع المزارعين الذين لا يستطيعون الوصول إلى أراضيهم بسهولة. إلى ذلك، فإنّ ما تقوم به الشركة من حفر عمودي، يصل حتى ارتفاع مئتي متر، لا يتوافق مع التدرج الذي تشترطه الرخص (إن وُجدت)، والتي تشترط أيضاً استصلاح الأراضي كلّ سنتين، وهو ما لم يحصل منذ 40 عاماً!

وعداً عن الأذى المباشر للتربة والطبيعة والمساحات الخضراء في الكورة، تزيد مصانع الإسمنت من تلوث القضاء بفعل استخدامها لوقودٍ سام هو «البتروكوك» و«دواليب الكاوتشوك» ما يترك آثاراً بيئية خطيرة، دفعت بالجمعيات البيئية والأهالي إلى المطالبة بوضع «مجسّات» للغازات والغبار. وفي عام 2017 وضعت مجسّات في بلدات فيع، قلحات، كفرحزير وحامات، إلا أنّ وزارة البيئة حجبت وقتها النتائج عن البلديات والأهالي، ورفضت تحرير المعدلات اليومية كما وعدت. والأنكى، أن العمل بهذه الآلات توقف بعد أشهر قليلة بحجة التقشّف!

> **الرُّخص إن وُجدت تشترط استصلاح الأراضي كل سنتين وهو ما لم يحصل منذ 40 عاماً**

هل الإسمنت صناعة وطنية؟

تبيع شركات الإسمنت الطن محلياً بـ120دولاراً، أي ثلاثة أضعاف السعر الذي تبيعه للخارج، وتذهب معظم الأرباح لأصحابها. وفي كلتا الحالتين، الجشع الرأسمالي هو ما يتحكّم بعمل الشركات على حساب صحة اللبنانيين، وعلى حساب اقتصادهم، إذ يستمرّ تهريب النقد إلى الخارج كما في حالة «هولسيم - لافارج»، ليبقى الفتات لعمال معظمهم من المياومين. تستعملهم الشركات كورقة ضغط على الدولة في أيّ قرار يتعارض مع مصالحها. اليوم، يطالب أهالي الكورة وزير البيئة بعدم منح الشركات مهلة لاستكمال تدمير بلداتهم. فالمهلة المطلوبة تمتد لأربعة أشهر، ستعمل خلالها الشركات على استخراج 10 آلاف طن يومياً، رغم الـ«ستوك» الموجود في مستودعاتها. وفيما لم يُحسم بعد توجّه الوزارة، إلا أنه يكفي الاطلاع على ما ورد في الخطة الإصلاحية في الصفحة 58-59، ليتبيّن أنها تطالب بتعويضات مقابل السماح باستمرار عمل المقالع غير الشرعية، بدل معالجة هذه الأزمة المدمرة من جذورها بحلول بيئية واقتصادية.

ملف

«الموجة الثانية آتية لا محالة»

عدّاد كورونا: الخوف من المخالطين لا من الإصابات

«الموجة الثانية من الإصابات، أو المرحلة الرابعة من انتشار الوباء آتية لا محالة». هي الخلاصة الأبرز التي توصّل إليها المجلس الصحي الأعلى الذي ترأسه وزير الصحة حمد حسن، أمس. خلاصة من شأنها أن «تُحجّم» التفاؤل الذي أرسته أرقام الإصابات المحدودة بفيروس كورونا في اليومين الماضيين. الحذر لا يتعلّق بالوضع الراهن بأعداد الإصابات، بقدر ما هو مرتبط بعدد المخالطين الكبير. ما يعني أن تقييم الواقع الوبائي سيكون رهناً بنتائج فحوصات هؤلاء

هديل فرفور

خمس إصابات فقط بفيروس كورونا، سُجّلت في لبنان، أمس، من أصل 1610 فحوصات مخبرية. فبعدما أعلنت وزارة الصحة ظهراً، أنها أجرت 1330 فحصاً مخبرياً، خمسة منها كانت نتائجها إيجابية (ثلاثة منها تعود لمُقيمين؛ منهم إمرأة حامل وضعت مولودها، أمس، فيما تعود

> انطلاق اعتماد كواشف الفحص المناعي السريع بهدف تقييم المناعة المُجتمعية

الإصابتان المُتبقّيتان لوافدَين تم تشخيص إصابتهما بعد مرور أيام على وصولهما إلى لبنان)، أعلن مُستشفى رفيق الحريري الحكومي الجامعي ليلاً عدم تسجيل أي إصابة من أصل 280 فحصاً مخبرياً. وعليه، أقفل العدّاد على 891 إصابة، شُفي منها 246 حالة، مع ثبات عدد الوفيات عند عتبة الـ 26 وفاة، ليصل عدد المُصابين الفعليين في لبنان إلى 619 حالة.

في المبدأ، فإنّ أرقام الإصابات جاءت، لليوم الثاني على التوالي من تاريخ بدء إجراءات الإقفال العام، غير «مُخيفة»، ومُطمئنة إلى حدّ ما. وهي تأتي، خلافاً لـ«مزاج» الذعر والحذر من اندلاع موجة ثانية للوباء. هذا الذعر تُرجم عبر إمساك البلديات والسلطات المحلية بـ«زمام الأمور»، من خلال مباشرة اتخاذ تدابير التشدد في تطبيق إجراءات الحجر المنزلي، فضلاً عن تواصلها مع المؤسسات الصحية وتفاعلها مع المبادرات الأهلية. ولعلّ ما عزز أجواء «الرعب» هو توتر الشائعات التي تفيد عن إصابات مخفيّة بالمئات في المناطق.

إلّا أن رقم الإصابات وحده لا يكفي ليحارب هذا المزاج. ذلك أن التخوّف قد يكون مبرراً لجهة ارتفاع أعداد المخالطين للإصابات التي أعلنت أخيراً، والتي كان مصدر غالبيتها عسكريي المحكمة العسكرية.

وزير الصحة حمد حسن شدّد، أمس، على أهمية تتبّع عائلات العسكريين والتزام المغتربين بالمسؤولية والحجر المنزلي الوقائي الإلزامي بمواكبة البلديات وفاعليات المجتمع الأهلي (وأعطى مثالاً أن حالتين إيجابيتين أدّتا إلى إصابة 18 شخصاً تقريباً)، لافتاً إلى أن «إقفال البلد كان بسبب العدد المرتفع للإصابات من ضمن السلك العسكري التي توزعت على مختلف المناطق اللبنانية، فكان من الضروري مواكبة عائلات المصابين ومخالطيهم من مختلف المناطق».

يُذكر أن أعداداً متضاربة نشرت تتعلق بالإصابات التي سجلت في صفوف العسكريين، «لكنها جميعها مبالغ بها»، وفق مصادر وزارة الصحة التي أكدت أن الأعداد «محدودة وتقلّ عن تلك التي نشرتها بعض المواقع الإخبارية».

إلى ذلك، تأتي الخلاصة الأبرز التي توصّل إليها المجلس الصحي الأعلى الذي ترأسه حمد، أمس، لتعزّز واقع الحذر الموجود، والتي تُفيد بأن «الموجة الثانية من الإصابات، أو المرحلة الرابعة من انتشار الوباء آتية لا محالة»، علماً بأن جلسة المجلس خُصّصت لتقييم المرحلة السابقة و«التحضير للمرحلة المقبلة من انتشار وباء كورونا، بحيث يتم رفع الجاهزية المشتركة لاحتواء الموجة الثانية من الإصابات والبقاء لأطول مدة ممكنة في المرحلة الحالية التي تعني وجود حالات إصابة ضمن مجموعات محددة جغرافياً».

وفيما لفت حسن إلى ضرورة العمل من مختلف المواقع الرسمية للاستعداد والجاهزية في حال وصول موجة جديدة من انتشار الوباء أو حصول انزلاق الى المرحلة الرابعة، أشار إلى أن المرحلة المقبلة يتطلب تحضيرها اتخاذ خطوات عدة؛ من ضمنها تفعيل المؤسسات والأجهزة غير الصحية لمؤازرة وزارة الصحة، ولا سيما في تطبيق تدابير الصحة العامة لمراقبة العزل المنزلي الإلزامي.

وكان لافتاً أن يعلن حسن انطلاق البدء باعتماد كواشف الفحص المناعي السريع بهدف تقييم المناعة المُجتمعية (Anti Body Screening Test وAntigen Swab Test)، «حيث سيتم تكوين فكرة أولية يوم الأحد عن هذا الموضوع»، على أن يتزامن هذا الإجراء مع رفع نسبة الفحوصات الموجهة في المناطق.

في هذا الوقت، تتجه الأنظار إلى المناطق، وإلى الجهود «المحلية» التي ستقام في كل منطقة. وفي هذا السياق، أجرت عيادة lau الطبية، أمس، فحوصات per مجانية للمواطنين غير المضمونين في بلدات البيسارية والبابلية والسكسكية وأنصارية، ضمن الحملة الوطنية لمحاربة تفشي الفيروس.

كذلك، استكمل عناصر قوى الأمن الداخلي عزل بلدة شحيم عبر وضع خمسة حواجز عند مداخل البلدة لمراقبة تطبيق الإجراءات.

وكان فريق طبي متخصص من مُستشفى رفيق الحريري في بيروت، قد أجرى فحوصات الـ pcr لـ 260 شخصاً في مجمع المدارس في شحيم ممن خالطوا الإصابات الثلاث التي سُجّلت في البلدة، على أن تصدر نتائج الفحوصات، اليوم. ولفت رئيس بلدية شحيم، في هذا الصدد، إلى أن شحيم فيها 50 ألف نسمة من اللبنانيين ونحو 15 ألف نسمة من اللاجئين السوريين والفلسطينيين وجنسيات أخرى، «فلا يمكننا أن نغامر بـ 70 ألف نسمة إلا أن نحجر شحيم مؤقتاً حتى نستطيع محاصرة الوباء».

التركيز على الحجر الإلزامي ومسؤولية البلديات يأتي في ظل استمرار تحدّي توافد المغتربين ضمن الدفعة الثالثة للإجلاء التي بدأت، يوم الخميس الماضي، في ظل عدم التوصل إلى أي خطط تتعلق بآلية الحجر القسري لـ«إيوائهم».

أمس، كان اليوم المخصّص لاستقبال الرحلات الآتية من البلدان التي لا تتوافر فيها فحوصات الـ pcr، وقد ضمّت نحو ألف مغترب توزعوا على أربعة فنادق وخضعوا للإجراءات نفسها التي اتخذت سابقاً (فحوصات per عند المطار والحجر في الفنادق إلى حين صدور النتائج، ومن ثم توزيع المصابين على مُستشفى رفيق الحريري وعودة غير المصابين الى منازلهم مع التعهد بالالتزام بالحجر المنزلي).

وفق مدير مكتب وزير السياحة مازن بو ضرغام، فإنّ الوافدين مجبرون هذه المرة على الالتزام بالحجر الصحي مع تفعيل البلديات والسلطات المحلية مهمة مراقبتهم والتأكد من التزامهم، لافتاً إلى أن بعض الطائرات الآتية من بلدان مشكوك بنتائج فحوصات الـ per فيها «يخضع المسافرون على متنها للإجراءات نفسها التي يخضع لها أولئك الآتون من بلدان لا تتوفر فيها الفحوصات». وذلك «لأنّ شكوكاً كثيرة تطرح بشأن نتائج بعض الفحوصات التي تجرى في بعض البلدان، وعليه تمّ حجر ركاب الطائرة الآتية من نيجيريا أول من أمس (240 راكباً) حيث أعيد إجراء الفحوصات لهم قبل تسريحهم».

أما التركيز على الحجر هذه المرة، فيعود إلى السعي إلى تجنّب تكرار السيناريو السابق الذي أدى إلى معاودة الانتشار. الجدير ذكره في هذا الصدد أن 53% من الإصابات هي حالات مخالطين، و29% هي حالات من الوافدين، «ولهذا الأمر أهميته على مستوى الوقاية الشخصية وتطبيق العزل»، وفق رئيسة دائرة التثقيف الصحي في وزارة الصحة الدكتورة رشا حمرا، لافتة إلى أن «55% من الحالات تصيب الفئة العمرية التي تتراوح بين 20 و49 سنة، لذلك تأتي الإصابات أقل فتكاً بالصحة من الإصابات التي تصيب الفئات العمرية الأكبر سناً».

حسن: إقفال البلد كان بسبب العدد المرتفع للإصابات من ضمن السلك العسكري التي توزعت على مختلف المناطق (هيثم الموسوي)

25% من شركات تأجير السيارات أفلست

رضا صوايا

سرعة الانهيار التي يشهدها قطاع تأجير السيارات لا مثيل لها في أيّ من القطاعات الأخرى. عشرات الشركات تغلق تباعاً، وتُقفل معها سبل العيش أمام نحو 1500 عائلة. المعطيات كلّها تشير إلى أنّ السقوط «حرّ»، وما من مكابح قادرة على التخفيف من حدّة الارتطام، بعدما تضافرت عوامل عدة لتزيد من صعوبة أيّ محاولة إنقاذية، أبرزها رفض المصارف الالتزام بتعاميم مصرف لبنان وجدولة ديون الشركات المتعثّرة، لا بل إصرارها على أن تدفع الشركات القروض على أساس سعر الصرف غير الرسمي!

في العادة، يبدأ في مثل هذه الفترة من العام النشاط الفعلي لشركات تأجير السيارات التي تعتمد بشكل أساسي على المغتربين والسيّاح. هذه السنة، أصبح هؤلاء ذكرى من الماضي في ظلّ تفشّي وباء «كورونا» وتأثيره على حركة السفر حول العالم. وأتى انهيار سعر صرف الليرة والارتفاع الجنوني في كلفة المعيشة ليقضي على أيّ أمل كان معلّقاً على الزبائن من المقيمين الذين تضاءلت قدرتهم على الصرف على الاحتياجات غير الأساسية.

نقيب أصحاب شركات تأجير السيارات السياحية الخصوصية، محمد دقدوق، يلفت إلى أن «نسبة التشغيل منذ 17 تشرين الأول الماضي وحتى الكشف عن أولى الإصابات بفيروس كورونا في لبنان بلغت بين 3% و4% فقط، وهي نسبة لا تكفي لتغطية تكاليف الكهرباء والتلفون. ومع تفشّي الفيروس وما رافقه من إجراءات وقائية تراجعت نسبة التشغيل إلى 0%، ولا تزال على هذه الحال». وطبيعي أن النتيجة الحتمية لواقع كهذا هي الإفلاس الجماعي للشركات التي «أُغلق حوالى 60 من أصل 240 منها خلال الأشهر الماضية. وهو رقم مرجّح للتصاعد بشكل كبير». ونجم، كذلك، عن حالة الجمود التي يشهدها القطاع اضطرار الشركات إلى بيع السيارات التي تملكها، أو بعضها، في محاولة للحدّ من الخسائر. دقدوق أوضح أن «أسطول الشركات تناقص من نحو 19 ألف سيارة العام الماضي إلى 13 ألفاً، بعدما بيعت 6 آلاف سيارة «بنراب المصاري» عسى أن يمكّن ذلك أصحاب الشركات من الصمود»، مشيراً إلى «أننا وصلنا إلى مرحلة بتنا فيها نقبل تأجير السيارة بأيّ ثمن لنتمكّن من تأمين أيّ مدخول».

> ترفض المصارف جدولة ديون الشركات وتطالبها بالدفع وفق سعر صرف للدولار يتراوح بين 1600 و1800 ليرة

بعض أصحاب الشركات كانوا قد تأمّلوا خيراً من التعميم 547 الصادر عن مصرف لبنان والقاضي بأن تمنح المصارف «على مسؤوليتها» قروضاً استثنائية بالليرة أو بالدولار الأميركي بفائدة 0% لمدة 5 سنوات لعملائها المتعثّرين، على أن تُستخدم هذه القروض لدفع رواتب الموظفين والعاملين لدى العملاء أو لتغطية حاجات إنتاجية أو تشغيلية. إلّا أنه منذ صدور التعميم، لا يبدو أن أيّ مؤسّسة خاصة قد استفادت منه، خصوصاً لإشارته بوضوح إلى أن على المصارف أن تُقرض «على مسؤوليتها» مؤسّسات متعثّرة عن الدفع! ولا يبدو، على أية حال، أن التعميم يشغل بال المصارف أساساً، إذ «ترفض أيّ جدولة لديون الشركات المتعثّرة، وتطالبنا بالدفع في الأوقات المحدّدة ووفق سعر صرف لليرة تحدّده هي، كلّ على هواه، ويتراوح بين 1600 و1800 ليرة للدولار»، بحسب دقدوق الذي يشير إلى أن وزارة السياحة عرضت بعض الخيارات لناحية جدولة القروض وغيرها، «لكن من بإمكانه الحديث مع المصارف أو مواجهتها في لبنان؟».

آخر «الضربات» التي تلقّاها القطاع اتّجاهُ شركات التأمين إلى تسعير البوالص على أساس 2600 ليرة أو 3000 آلاف ليرة للدولار. «ومع تفهمنا لمنطقها، واضطرارها لشراء قطع للسيارات في حال حصول حوادث، لكن كيف نؤمّن بهذا السعر ونحن نؤجر وفق سعر الصرف الرسمي؟».

قرارات التعبئة العامة، هي الأخرى، «بلّت» يدها في الشركات الواقفة على شفير الإفلاس. إذ أن قرار وزارة الداخلية بتقييد حركة سير السيارات حسب أرقام اللوحات دفعت «من تبقّى من الزبائن إلى الاشتراط علينا بأن دفع البدل يكون بحسب الأيام التي يمكنهم التجول خلالها، ناهيك عن أن مخالفتهم للقرار تحرمنا من التأمين في حال التعرّض لحوادث» بحسب دقدوق. ناهيك عن المنافسة غير المشروعة للشركات غير القانونية والأفراد الذين «يؤجّرون سيارات خاصة غير سياحية بأسعار تقلّ بنسبة 20% إلى 30%. ورغم أن شكوانا من هذا الأمر عمرها سنوات، لم يُتّخذ أيّ إجراء لوقف هذه الظاهرة، خصوصاً أن كثيرين من هؤلاء محميون سياسياً»!

اجراءات التعبئة وجهت ضربة اضافية الى قطاع تاجير السيارات (هيثم الموسوي)

«تجارة كورونا» على الإنترنت: «علاجات» ومعدّات طبية مسروقة ودماء للبيع!

(أ ف ب)

علي عواد

لا تنفكّ هذه الأيام تزداد غرابةً. يشير إلى ذلك بوضوح، ما كشفه باحثون من الجامعة الوطنية الأسترالية عن تجارة تتمّ في المستوى المُظلم من الإنترنت (Dark Web)، حيث تباع دماء من شفوا من فيروس «كورونا»، على أنها علاجٌ للمرض. لا تقتصر الغرابة على عنصر الدماء فحسب؛ إذ يمكن شراء كل أنواع المسروقات، من المعدات الطبية إلى الملابس الواقية، وغيرها الكثير من «علاجات» طاردة للفيروس، وبأسعار تتراوح بين 16 ألف دولار و25 ألفاً.

ينقسم الإنترنت إلى مستويات ثلاثة: أوّلها «السطح»، حيث توجد مواقع محركات البحث (مثل «غوغل» و«بنغ» (Bing)) التي تعتبر بمثابة حارس بوابة الإنترنت؛ وثانيها «الإنترنت العميق» الذي يشكّل 90% من محتوى الشبكة، ولا يمكن الوصول إليها من خلال محرّكات البحث، بل عبر كلمة مرور لموقع محدّد، مثل البريد الالكتروني والمواقع الاجتماعية وتلك الحكومية ومراكز الأبحاث؛ أما المستوى الثالث، أي الإنترنت المُظلم او مرتع القراصنة والمرتزقة وكل المتاجر السوداء، فهو بمثابة جزيرة مخفية عن أعين المستخدمين، تتمّ فيها المتاجرة بكل شيء، من الأسلحة والبشر، إلى القتلة المأجورين. يُمكن تقريباً طلب كل ما هو غير قانوني، وأحياناً «غير إنساني». الدخول إلى هذا المستوى من الإنترنت، يجري عن طريق متصفّح خاص (Internet browser) مثل «تور» (TOR)، يَستخدم تقنيات تشفير تسمح بإخفاء هوية المستخدم عن رادارات الدولة وأجهزة الاستخبارات، وتتمّ عمليات البيع والشراء فيه بعملة «بتكوين» الرقمية (Bitcoin) كونها لا يمكن تتبُّع مصدرها، بحيث يبقى البائع والشاري مجهولَي الهوية.

كذلك بات معلوماً أن دماء مَن أصيبوا بـ«كورونا» وشفوا، قد تحتوي على أجسام مضادة للفيروس، غير أن هذا الأسلوب من العلاج لا يمكن أن يتم إلا في المستشفيات ومراكز الأبحاث، كونه لا يزال جديداً، كما أنه ليس واضحاً، لغاية الآن، كم من الوقت تبقى تلك الأجسام المضادة في جسم الإنسان، أو إن كانت ستمنع الفيروس من إصابة الجسم مجدّداً. لكن الخوف من «كوفيد-19» يدفع العديد من مستخدمي الإنترنت إلى البحث عن أيّ علاج أو لقاح يقيهم شرّ الفيروس. لهذا السبب وغيره الكثير، وخصوصاً في ظلّ عدم توفُّر علاج للمرض، فضلاً عن النقص الكبير في المستلزمات الطبية اللازمة لمواجهته، قام بعض أصحاب المتاجر السوداء على «الإنترنت المظلم» بعرض هذه «الأغراض» للراغبين بشرائها. فكرة الأسواق السوداء تدغدغ مشاعر البعض، وتعطي الراغب في الدخول إليها قدرة على الخروج من حالة «الانتظار في الصف»، وتوهمه بأنه حصل على ما يريده... قبل الجميع. بحسب تقرير الجامعة الوطنية الأسترالية، هناك حوالى 20 متجراً، ثلاثة منها تمثّل 90% من مجموع عمليات البيع. وتختلف أنواع اللقاحات والعلاجات، من الدماء والبلازما إلى لقاحات مسروقة من مراكز أبحاث، ولا تزال في طور التجارب على البشر، كما العديد من المعدات الطبية المسروقة من المستشفيات أو المصانع المنتجة لها. وتصل قيمة بعض هذه اللقاحات إلى ما بين 16 ألف دولار و25 ألفاً للقاح الواحد.

> تتمّ عمليات البيع والشراء بعملة «بتكوين» الرقمية كونها لا يمكن تتبُّع مصدرها

باتت حالة الفوضى التي تسيطر على العالم كبيرة، كما بات لكمية المعلومات المغلوطة ونظريات المؤامرة جمهور ضخم، فيما يتمثّل الخطر الأكبر بعدم وجود رقابة فعلية على المنتجات التي تباع في هذا العالم السفلي، والتي إن لم تكن مضرة أساساً، فستكون غير ذات فائدة. علماً بأن الأسعار المعروضة هي بالآلاف الدولارات، وقد تعرّض البعض لخسارة أموالهم خلال عملية البحث عن أملٍ زائف.

الخطة المالية: القطاع الصحّي أولاً

حسين منصور*

فرضية التهدئة أو ربط النزاع المؤقت، بدأت تظهر كأمر واقع لما فيها من مصلحة آنية لكلّ القوى المنخرطة في النزاعات المختلفة لمنطقتنا. الدول الكبرى مشغولة بتداعيات فيروس «كورونا» الصحّية والاقتصادية والاجتماعية الهائلة. والرئيس الأميركي يعمل جاهداً للسيطرة على الوضع الاجتماعي، قبل أواخر حزيران/ يونيو لحساباته الانتخابية. وللوقوف بوجه المؤسّسات العميقة التي أخذت قرارها، منذ شهرين تقريباً، بدعم المرشّح الديموقراطي جو بايدن (بحسب ما فهمت من صديق في وزارة الخارجية الفرنسية)، وفي حين تفتّش أوروبا عن حلول ما بعد «كورونا» لمنع تفكّك الاتحاد الأوروبي وبقائه هيكلاً عظمياً، كضمانة للمؤسّسات المالية وحماية الأمن الاجتماعي داخله.

ولكون لبنان، كان وما زال يشكّل ميزان الحرارة لهذه المنطقة، فلا توجد مصلحة آنية لهذه القوى الغربية في انهياره، وتسليمه على طبق من ذهب إلى محور الممانعة، أي بحسابات هذه الدول الكبرى، إيصال الصين إلى البحر المتوسط. وبالتالي، فإنّ لبنان محكومٌ بمعادلة التهدئة الإقليمية. وهذا ما يفسّر لقاء السفيرة الأميركية مع رئيس الحكومة، والطلب بوضع خطة اقتصادية كمقدّمة لاستحضار المساعدات المالية الخارجية. وكذلك، استعجال وزير خارجية فرنسا، بعد الضوء الأخضر الأميركي، إعلان هذه الخطة واستعداد أوروبا للمساهمة.

وتناغماً مع حالة التهدئة هذه، أتت الخطة المالية من قِبل الحكومة في لبنان بدون تغييرات جوهرية في توجّهاتها، كحال كلّ الخطط التي قُدّمت سابقاً من أجل استحضار الدين الخارجي كـ«باريس1» و«باريس 2» وثمّ «سيدر». ويمكن وصفها بخطّة مهدّئات أعصاب للوضع المالي المُنهار، آخذة بعين الاعتبار كلّ التوازنات السياسية الداخلية: فلا استرجاع للأموال المنهوبة ومحاسبة الفاسدين من المصارف والطبقة السياسية المتعفّنة، ولا إزاحة لسياسات حاكم مصرف لبنان. برأينا، ستربط المصارف، وبعض أصحاب المليارات السياسية، إعادة حفنة صغيرة من الأموال المنهوبة، بشرط استثمارها في المرافق العامّة المربحة أصلاً، كالمطار والمرفأ والكهرباء وغيرها (وهي كانت حاضرة دائماً في خطة الحريري الأب والابن). على كلّ حال، فإنّ الوهم بالتغيير ساقطٌ سلفاً، وأقله لسببين: لا يوجد داخل الحكومة رجالٌ من حملة الحلول الثورية، كتشي غيفارا أو قاسم سليماني، ولا يوجد شارعٌ منظّم وموّحد حول مطالب تطال تغيير البنية المالية والاقتصادية من جذورها. وللإنصاف، هناك حوالى 10% فقط من الشارع، ممّن يطالبون بحلول ثورية؛ وأمّا الباقي فهو عبارة عن شوارع متعدّدة معلّقة بـ«كراعيب» التوازنات الداخلية لأحزاب الأمر الواقع الطائفية. فلنترك التمنيات والأوهام وننظر من خلال الخطة المالية المفروضة من الخارج إلى اقتراحات على «القطعة»، أي أولويات الناس في قطاعات تشكّل العمود الفقري لحاجياتها البديهية، أعني القطاع الصحي. وقد جاءت «كورونا» لتشكّل حافزاً على الالتزام الأخلاقي والمعيشي للدولة والمجتمع تجاه المواطنين. يجب أن نشعر بالخجل في القرن الواحد والعشرين عندما يُقال: «فلان مات لأنه لم يستطع دفع تكاليف علاجه، أو عولج بقدر إمكاناته المالية». فالصحة، كما هي عليه اليوم، سلعة تخضع لنظام السوق القائم على العرض والطلب، بمعنى أنّ كمية ونوعية العرض تأتي تلبية لنوعية الطلب وأولويات الحاجة إليه. ولكن بالمبدأ، هذا النظام الليبرالي لا يصلح تطبيقه على سلعة الصحة، لأننا ملزمون دائماً بتقديم أفضل نوعية في العلاج تجاه طلب الحاجة المرضية، كيفما كانت إمكانيات هذا الطلب «المالية». لذلك، تتعارض الخدمة الصحية مع أية سلعة استهلاكية أخرى، ويتوجّب إخراجها من عقلية عالم المال، وبالتالي النأي بالنفس عن شروط صندوق النقد، وتوجّه الدولة إلى تعزيز وتفعيل القطاع العام خارج نظام السوق الليبرالي الذي يحاول فرضه علينا، والخروج من الدوران في الحلقة المفرغة التي أدخلت وزارة الصحة والدولة في لبنان، نفسها فيها: سياسة قائمة على الحماية الصحية للمواطنين، بوضع رقبتهم تحت مقصلة القطاع الخاص، ناهيك عن أنها سياسة استهلاكية خالصة، في الوقت الذي يستطيع فيه القطاع الصحي أن يكون منتجاً. وهذا ما يحصل في البلدان المتقدّمة (والليبرالية أصلاً)، وفي كثير من المجالات الطبية: إنتاج الدواء والمعدّات الطبية (أرباح بمئات المليارات من الدولارات) وغيرها، وصولاً إلى السياحة الاستشفائية. وبناء عليه، نذكّر موجزاً بالاقتراحات العملية من خلال دراسة أعددناها عام 2019:

1 ـ التغطية الصحية الشاملة والمتساوية بين المواطنين. وهذا حقّ للمواطن في الصحة والاستشفاء والحصول على الدواء وغير ذلك. كلفة التغطية الصحية الشاملة، بحسب الدراسات الأولية، يجب أن لا تتعدّى المليار ومئتي مليون دولار سنوياً، وهي تغطي 75 إلى 80% من حاجيات المواطن الصحية (وهذا الرقم قريب جداً ممّا كانت قد أوردته إحدى شركات التأمين الخاصة، وتعهّدت بالتزامه من وزارة الصحة).

> تناغماً مع حالة التهدئة أتت الخطة المالية من قبل الحكومة في لبنان بدون تغييرات جوهرية في توجّهاتها

2 ـ تدعيم المراكز الاستشفائية الحكومية، وعددها 30 مستشفى: يعمل منها 11 مستشفى، خمسة من هذه المستشفيات تقدّم خدمة طبية مقبولة. نقترح خطة من 3 ـ 5 سنوات قائمة على:

ـ إعادة تأهيل وتجهيز طبي وإداري لـ10 من المستشفيات الحكومية (بحسب أولويات المناطق)، على 2 إلى 3 سنوات، بكلفة 250 ـ 300 مليون دولار.

ـ تجهيز الـ10 الباقية على 3 إلى 5 سنوات بالكلفة نفسها.

تتمتّع إدارة كل مستشفى، تحت رقابة الوزارة، بنوع من الاستقلال المالي (في إدارة ميزانيتها) والإداري (الموظفين والرواتب) والمناطقي (دور البلديات)، واختيار الجسم الطبي ومساعدته في إعادة تأهيله كلّ 5 إلى 7 سنوات.

3 ـ إنشاء مراكز ومختبرات تصنيع الدواء الوطني (مع أو بدون القطاع الخاص)، وكما هو معروف، فإنّ احتياجات القطاع الصحّي من الدواء، في أيّ بلد في العالم، تُختصر بـ50 إلى 60 منتجاً دوائياً رئيسياً، والباقي هو مشتقّات دوائية. الكلفة الإجمالية لمجمل معامل تصنيع الدواء لا تزيد عن 400 مليون دولار، يستطيع لبنان من خلالها، ليس فقط سدّ حاجة السوق المحلية بنسبة 75%، ولكن أيضاً التصدير والمنافسة على نوعية المنتج الدوائي. بذلك، تستطيع وزارة الصحة أن تكون منتجة للصحة، وليست فقط مستهلكة لفاتورة تفوق المليار دولار.

4 ـ توحيد الصناديق الضامنة، وضمّها جميعاً إلى برنامج التغطية الصحية الشاملة، بما يوقف الهدر والذلّ للموظفين والعمّال والعسكريين وغيرهم، ويحدّ من العجز في الميزانية العامة للدولة اللبنانية.

5 ـ تعزيز الرقابة على كامل المؤسّسات الطبية العامة والخاصة، في ما يتعلق بنوعية وفوترة الخدمة الطبية، وفي ضرورة أو عدم ضرورة الفحوصات البيولوجية والإشعاعية والعمل الجراحي، والكشف عن تلاعب المستشفيات بالفواتير المقدّمة. كذلك، مراقبة السلوك الطبي والصيدلي، بالتعاون مع نقابتي الأطباء والصيدلة، والعمل على تشجيع الدخول في مشاريع البحث العلمي، من خلال رصد ميزانية خاصة بأمراض تحتلّ أولوية في وضعنا الصحي في المنطقة، كذلك الرقابة الصارمة على المقاعم والمعامل المنتجة للأطعمة، وعلى استعمال المبيدات في إنتاج الخضراوات والفواكه وعلى مصادر التلوث البيئي.

6 ـ تنظيم برامج الوقاية الصحية الأولية، وهي تكاد تكون معدومة في لبنان (إن من قِبل الدولة أم من الإعلام). ففي القرن الواحد والعشرين، لا يكفي علاج مريض السكري بالأدوية، من دون توعيته ومحيطه العائلي لنمط التغذية والحماية، ولا معالجة الإصابات بالقلب والرئة، من دون التوعية للمسبّبات مثل التدخين وعدم النشاط الجسدي والوضع البيئي. طبعاً، يتحمّل الطبيب المعالج جزءاً من المسؤولية في شرح هذه المسبّبات أمام المريض، ولكنّ التوجّه نحو توعية المجتمع بمجمله، هو مسؤولية وزارة الصحة (والإعلام طبعاً). ولا بدّ من التذكير بأن برامج التوعية الصحية والوقاية لا تكلّف الوزارة ميزانية كبيرة، فمعظم هذه البرامج مجانية وحاضرة في توجّهات منظمة الصحة العالمية والكثير من المنظمات اللاحكومية، التي تُعنى بهذا الشأن.

7 ـ التشبيك الصحّي والعلمي مع دول المحيط: يحتفظ لبنان الطبّي ببعض من تاريخه الذي ما زال يشكّل في الوقت الحاضر عنصراً إعلامياً في جذب جزء غير قليل من المرضى في محيطنا العربي، يأتون إلى لبنان للعلاج والسياحة. إنّ ترشيد وتنظيم هذه السياحة الاستشفائية من قِبل وزارة الصحة، قد يدرّان على لبنان دخلاً مهمّاً (وصل في بعض البلدان، كالأردن مثلاً، إلى 2 مليار دولار سنوياً منذ حوالى العشر سنوات)، وبالتاسيس على هذه الظاهرة الحالية في لبنان، يمكن الذهاب نحو نوع من التشبيك الصحّي مع دول المحيط، بتوجيه قسم من الأطباء عندنا ملء الفراغ الحاصل في سوريا والعراق في بعض الاختصاصات، عن طريق التعاون مع وزارات الصحة في البلدان المذكورة. إنّ من مصلحة لبنان الطبية، أن تبادر وزارة الصحة إلى تأسيس هذا النوع من التكامل الصحي مع دول الجوار، علماً بأنّ المواطن العربي كان قد سبق سياسات حكومات بلاده إليه.

خلاصة، وكما هو ملاحظ من خلال هذه الأرقام، فإنّ الاقتراحات الواردة أعلاه تحترم ميزانية وزارة الصحة في حدودها الحالية، ولا تخرج عن نسبة النفقات الصحية من الناتج القومي العام. ومن خلالها، نستطيع إحداث تغيير بنيوي في السياسة الصحية، والتحوّل إلى سياسة إنتاجية آخذة بعين الاعتبار الحق الإنساني والأخلاقي للمواطن في الصحة.

أخيراً، وبالرغم من قناعتنا بأنّ الخطة المالية ـ الاقتصادية ستبقى حبراً على ورق، ولن يطبّق منها سوى شروط صندوق النقد الدولي والدول المانحة، وبالتالي إعادة إنتاج الديون والنهب والفساد ـ لأنّ أدمية رئيس الوزراء الحالي، لن تُصرف في زبالة الطبقة السياسية والمصرفية الفاسدة، وتجربة الرئيس إميل لحود والرئيس سليم الحص لم تأتِ بتغيير ـ إلا أنّه يتوجب مخاطبة الشارع اللبناني بكثير من الوضوح والشفافية، بالقول: كل أموال منهوبة وأنتم بخير، وكل انتمائكم الطائفي والمذهبي و«كراعيبكم» بخير؛ ولكن مصلحتكم المباشرة، تكمن في قطاع صحّي عام مؤتمن وأخلاقي، وإلاّ فأنتم وأولادكم لن تكونوا بخير.

* طبيب لبناني أخصّائي في جراحة الأعصاب مقيم في فرنسا

(هيثم الموسوي)

تشكيلات المجتمع اللبناني ومواجهة أزماته

أحمد بعلبكي*

قامت موروثات الحكم العثماني والانتداب الفرنسي على التفريق بين الطوائف اللبنانية المتعايشة في القرى والمدن. وترسّخ هذا التفريق في البناء السياسي للكيان اللبناني، وفي التشريع لكيانات طوائفه، بما يبرّر الولاءات الخارجية لزعاماتها وتحويلها، في ظل الاستقلال المنقوص، من جماعات إيمان متوارث لم يخل سابقاً دون تعايشها واندماجها في المناطق اللبنانية المتعدّدة الديانات. ولكنّ تبعية النمو الخارجي للاقتصاد اللبناني، القائم على الوساطة الليبرالية المفرطة، وعجزه عن توفير ما يكفي من فرص العمل، أدّيا، خصوصاً بعد قيام إسرائيل وانقطاع الجنوبيين اللبنانيين عن أسواق فلسطين، إلى تدفّق النزوحات، من الأرياف إلى المدن، وإلى تضاعف هجرات النخب اللبنانية إلى أنظمة وأسواق ومجتمعات خارجية. وكانت لليبرالية الاقتصاد المُفرطة، التي حصنتها وتحصّنت بها زعامات الطوائف المتقاسمة للسلطة ولخدمات الإدارة العامة، ومكّنتها من الحرص على رعاية طقوس هذه الطوائف، وتحكّمها في توزيع حصصها من الخدمات العامة والتعيينات على الوجهاء، الأقدر على ضمان أصوات الناخبين الأقلّ ولاءً.

وفي ظل هذا التمثيل الزبائني، جرى الربط بين مستحقّي الخدمات ومستوى تنفّذهم في عائلاتهم وقراهم، ولا سيما في ظلّ قانون الانتخاب، حيث يحرص زعماء الطوائف على تصويت الناخبين في أماكن تسجيل قيود نفوسهم، وحيث يسهل عليهم رصد تصويت الناخبين وفرزهم، أفراداً ومجموعات في القرى والحارات، وليس في مدن نزوحهم حيث يستعصي عليهم ذلك. وهذا التفريق في أماكن التصويت، يؤثّر كثيراً على ما يقارب نصف مجموع الناخبين تقليدياً، وعلى ضمان تصويت الواقعين ضمن علاقات التضامن القرابي أو الديني التقليدي، أو التنفّع، وهي علاقات تتظاهر بضمان الأمان المحلّي أو « الآلي»، على حدّ توصيف إميل دوركهايم، الأمر الذي يحول دون ارتقائهم إلى علاقات التضامن «العضوي»، حيث يتضاءل «الشعور بالانتماء الذاتي ـ Subjectif» التقليدي للفرد داخل الجماعة، لتحلّ محلّه بين الأفراد، العلاقات الموضوعية Objectives، والمواطنية.

وتنعكس مثل هذه العلاقات التقليدية، سياسياً وطائفياً، في أنظمة التعليم وبرامجه، لتبقى الأجيال في مناشئها رهينة الولاءات المتوارثة والخدمات الزبائنية، ولا تجعل من تنوّر الأجيال دافعاً لتحرير الخيارات. ولهذا، لم يحل التشكّل والتطوّر المجدّدان لتبعية التحاصص الطائفي، دون تعزيزه بإنشاء قطاعات تعليم تتنافس في انفتاحاتها على برامج العلوم والتكنولوجيا المستوردة، وعلى تكوين النخب اللبنانية المؤهّلة تقليدياً وتقنياً ولغوياً للتحوّل إلى تجّار ورجال أعمال والقيام، حتى نهاية سبعينيات القرن الماضي، بدور الوساطة بين الأسواق العربية الناشئة والأجنبية الغنية. وهذا ما وفّر فرص ازدهار الاقتصاد اللبناني، وفرص استيعاب واسعة للعمالة اللبنانية، على امتداد ثلاثة عقود، انتهت في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، بفضل ارتفاع أسعار برميل النفط من حوالى 4 دولارات إلى 20 دولاراً. و كان من نتائج ازدهار أسواق النفط، استغناء الأسواق الخليجية خصوصاً عن الوساطة اللبنانية، ولا سيما مع تفاقم الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرّت حتى أواخر الثمانينيات، وانعقاد مؤتمر الطائف الذي وضع حدّاً لتلك الحرب برعاية سعودية وسورية، وعقد زعامات الطوائف وميليشياتهم في وحدانية تفرّدهم بالحكم.

> ظلّت أكلاف العجوزات تتراكم تحت رعاية وزارة المالية ومصرف لبنان ومحدودية رصدهما لمخاطر الإنفاق غير المسؤول

اقترن هذا التفرّد باعتماد سياسات اقتصادية تزيد من انفتاح الليبرالية اللبنانية، ولا سيما على صعيد التجارة الخارجية، حيث خُفّضت الرسوم على الواردات المُنافسة للمنتجات الصناعية اللبنانية. وزادت هذه السياسة في ارتفاع نسبة البطالة عموماً، لترتفع إلى 12%، وتصل في أوساط الشباب إلى حوالى الثلث من متخرّجي الجامعات. كما زادت في أعداد المغادرين عام 2019، غير العائدين، إلى حوالى 62 ألفاً، وفقاً لما ورد في النشرة الصادرة عن «الدولية للمعلومات»، علماً بأنّ طلب العمالة اللبنانية في أسواق الخليج قد تراجع بفعل منافسة العمالة الآسيوية. واقترن ذلك بتثبيت سعر صرف الليرة اللبنانية، بما يقلّل من قدرة المنتجات اللبنانية المُعدّة للتصدير، على المنافسة في الأسواق العربية خصوصاً، ما زاد في ارتفاع الواردات اللبنانية إلى حوالى 80% من الاستهلاك، ومن التوسّع في اعتماد الدولار بنسب متعالية في السوق الداخلية، ومن تسهيلات مكّنت المستهلكين اللبنانيين من الإنفاق على المستوردات، ومن تراكم عجز الميزان التجاري الذي ظلّ يقارب الـ20% من إجمالي الناتج الوطني.

ظلّت أكلاف العجوزات تتراكم تحت رعاية وزارة المالية ومصرف لبنان، ومحدودية رصدهما لمخاطر الإنفاق غير المسؤول، فشجّعا على الاستدانة من المصارف التي أغرتها نسبة الفائدة المنفلتة المعروفة، لتغري بها مودعيها تحت ظلّ ليبرالية النظامين الاقتصادي والمالي، بعدما كرّر وزير المالية على امتداد سنوات، اطمئنانه إلى الوضع المالي، وكان آخرها ما أورده في مقدّمته لموازنة عام 2019، حيث قال إنّ هذه الموازنة «على الرغم من أنها لا تُعبّر عن مالية الدولة الكاملة، بل تمثّل جزءاً كبيراً من موازنة الحكومة المركزية، في حين أن العديد من البلدان حول العالم يعقد موازنة عامة للدولة ...». ورغم ذلك، فإنّ «موازنة المواطنة والمواطن» (تأتي من ضمن سلسلة التوعية المالية والضريبية المهمّة لتوعية المواطن حول حقوقه وواجباته، وتُسهّل قيامه ببعض المعاملات الأساسية وتعزيز الشفافية وثقافة المواطنية».

وفي مثل هذه الموازنة، يقدّم المصرفيون للمودعين إغراءات لا يقدم عليها أبسط المرابين، لجهة المسؤولية والمهنية في اشتراط توفير المُدين لضمانة سداد القرض مقابل عقار أو أي أصول أخرى، وموافقته على تسجيل قيمة الضمانة مهما غلت، بما لا يزيد على ثلثي القرض المطلوب. وفي مثل هذا الاقتصار لعمل المصارف على التنعّم بفوائد نادرة على قروضها للدولة، غير معروفة عالمياً، و على الإفراط في نشر فروعها الفخمة على مسافات لا تزيد في محيط بيروت الكبرى، بعضها عن بعضها، أكثر من 2 إلى 3 كيلومترات فقط.

أجل، في مثل هذه الإدارة الحكومية الطائفية للمال العام التي تنظّم الموازنات لإرضاء زعامات الحكومة المركزية ولا تكون، كما ورد أعلاه، «موازنة عامة للدولة»، حيث يتم توزيع أعضاء هيئة الرقابة على المصارف ونواب حاكم مصرف لبنان طائفياً، ويتعطّل تعيينهم لأسباب طائفية، وأميركية أحياناً، ويواصل حاكم مصرف لبنان دوره المنفرد إجمالاً. وفي مثل هذه الإدارة، تنعم المصارف اللبنانية بجماعات من المودعين القاصرين، ممّن تغلب بينهم ضالة الثقافة المصرفية، ويُعاملون ضمن علاقات زبائنية تقليدية وطائفية أحياناً (مغتربون ومدّخرون ومتقاعدون وما شابه) ممّن لا يُشكلون قوة ضغط سياسية.

* باحث لبناني

موقع لبنان في الإقليم

محمد سيد رصاص*

في يوم الأربعاء 12كانون الثاني/ يناير 2011، أُسقطت حكومة الرئيس سعد الحريري من قِبل أطراف ثلاثة، هي: حركة أمل وحزب الله والتيار الوطني الحر، مع وزير مستقل، كانوا يمثّلون أحد عشر وزيراً من أصل ثلاثين. كان بالغ الدلالة أن تُعلن تلك الاستقالات للوزراء الأحد عشر، أثناء اجتماع الحريري مع الرئيس الأميركي باراك أوباما في البيت الأبيض، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ اتفاق الدوحة (21 أيار 2008)، الذي أنتج حكومة الوحدة الوطنية اللبنانية (برئاسة فؤاد السنيورة عام 2008، ثم الحريري عام 2009)، كان حصيلة اتفاق أميركي ـ إيراني وافقت عليه السعودية وتركيا وسوريا. هنا، كان حزب الله، من خلال موافقته على اتفاق الدوحة، يريد القول إنه لن يشتغل بمفاعيل «7 أيار 2008»، التي عنت انكسار معسكر 14 آذار أمام معسكر 8 آذار، بعد صراع استغرق ثلاث سنوات، في قراءة من قِبل الحزب لتعقيدات التركيبة اللبنانية، التي لم تسمح بدورها لمعسكر 14 آذار أن يحكم وفقاً لما يريد في فترة 2005 ـ 2008. وجاء ذلك أيضاً، في مراعاة منه لقراءة اللوحة الإقليمية التي كانت تقول بأن التحالف الإيراني ـ السوري في الإقليم لم يمنع تباينات بين دمشق وطهران تجاه العراق المغزو والمحتلّ، ولم يمنع حصول تقارب سعودي ـ سوري في لبنان، تُرجم في فترة 2008 ـ 2010، بمعايدة أسماها الرئيس نبيه بري بالـ«س ـ س»، كما لم يمنع دعماً مشتركاً سعودياً ـ سورياً ـ تركياً لقائمة «العراقية» برزعامة إياد علاوي ضدّ قائمة «دولة القانون» برزعامة نوري المالكي، المدعوم من طهران في انتخابات البرلمان العراقي، في شهر آذار/ مارس 2010.

كان تخلّي دمشق عن علاوي واتّفاقها مع طهران على دعم المالكي في تشرين الثاني/ نوفمبر 2010، مؤشّراً على اصطفاف إقليميّ جديد آنذر بانفراط التحالف السوري ـ السعودي ـ التركي في المسألة العراقية، وبانفراط معادلة «س ـ س» في بيروت، وعلى الأرجح أنبأ ذلك عن اللوحة الإقليمية التي وقفت مع السلطة السورية وضدّها في فترة ما بعد نشوب الأزمة السورية، بدءاً من درعا في 18 آذار/ مارس2011. طبعاً، كانت واشنطن بيت القصيد، وهي موضع التصويب، وإلّا لما جرت تلك الاستقالات أثناء اجتماع أوباما والحريري، في رسالة بانفراط معادلة اتفاق الدوحة الذي هو أساساً اتّفاق أميركي ـ إيراني يخصّ بيروت. تماماً كما كانت عودة المالكي لتولّي رئاسة الوزراء في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 2010 تعبيراً عن اختلال لصالح طهران في المعادلة التوازنية الأميركية ـ الإيرانية التي أوصلته عام 2006 إلى رئاسة الوزراء العراقية. ما جرى في بغداد وبيروت، آنذاك، كان يُنذر ببدء مواجهة إيرانية ـ أميركية لم تنتهِ سوى مع الاتّفاق الأميركي ـ الإيراني حول البرنامج النووي الإيراني عام 2015 والذي كان من مفاعيله اتّفاق أميركي ـ إيراني على انتخاب العماد ميشال عون رئيساً للبنان في عام 2016، ولكن من دون موافقة الرياض على ذلك، في وقت كان هناك خلاف سعودي ـ أميركي يتعلّق باتّفاق أوباما مع الإيرانيين. وقد انعكس ذلك في معارضة السعودية للتسوية الرئاسية التي كان أحد أطرافها سعد الحريري والتي أتت بعون إلى قصر بعبدا، وصولاً بعد سنة من ذلك، إلى ما جرى في الرياض من محاولة لإجبار الحريري على تقديم بيان استقالته.

ليس يوم 12 كانون الثاني/ يناير 2011 يوماً عادياً في تاريخ لبنان، ففيه انكسرت معادلة «الدوحة» التي جرت محاولة تجييرها عبر «التسوية الرئاسية» عام 2016، قبل أن تموت معادلة هذه التسوية الرئاسية مع بدء احتجاجات واسعة في المجتمع اللبناني، بدءاً من يوم 17 تشرين الأول/ أكتوبر 2019ثم استقالة الحريري من رئاسة الوزراء اللبنانية بعد أسبوعين من ذلك. عملياً، معادلة «الدوحة» هي صيغة جديدة لاتفاق الطائف، أو خريطة تنفيذية له، غير التي كانت معتمَدة في فترة ما بين عامي 1989 ـ 2008. بين يومي 12 كانون الثاني/ يناير 2011 و31 تشرين الأول/ أكتوبر 2016، عاش لبنان أزمة سياسية، وهو يعيشها الآن منذ يوم 29 تشرين الأول/ أكتوبر 2019، ويبدو أنّ حزب الله كان واعياً لهذا الأمر، لذلك كان تمسّكه حتى اللحظات الأخيرة، بإعادة الحريري إلى السراي الحكومي.

في هذا الإطار، هناك قضايا عدّة: منذ ذلك اليوم من عام 2011، لبنان هو ساحة لتجابه إيراني ـ أميركي تمّت تسويته عام 2016، من دون رضا الرياض، ثمّ عاد هذا التجابه مع تعاضد سعودي ـ أميركي في الساحة اللبنانية، للاشتعال مع إلغاء «دونالد ترامب في 8 أيار/ مايو 2018، توقيع أوباما على الاتّفاق النووي مع إيران. مع القرار الدولي 1559 (2 أيلول/ سبتمبر 2004)، أصبح لبنان ساحة لمجابهة أميركية ـ سورية، من خلالها دفعت دمشق في بيروت ثمن سياستها المعارضة لواشنطن في العراق المغزو والمحتل، حتى إخراج الجيش السوري من لبنان في 26 نيسان/ أبريل 2005. في اشتباكات منطقة الجامعة العربية في الشهر الأول من عام 2007 في بيروت تمّ حلّ الموضوع عبر لقاءات بين علي لاريجاني وبندر بن سلطان، وهو ما أشّر إلى أنّ طهران قد أصبحت أقوى من دمشق في بيروت، بخلاف فترة ما قبل 26 نيسان/ أبريل 2005، عندما كان اتفاق الطائف عام 1989 ومفاعيله في المؤسسات اللبنانية مبنيّاً على توافق أميركي ـ سعودي ـ سوري، هذا التوافق، الذي انفرط عامي 2004 و2005. حرب 2006، هي محاولة فاشلة من تل أبيب، بالوكالة عن واشنطن، لضرب نفوذ إيران في لبنان.

تلفت النظر، هنا، ظواهر عديدة: في فترة ما بعد اتفاق الدوحة، وحتى نهاية عام 2010، دخلت إلى المصارف اللبنانية ودائع من الخارج، تصل إلى 30 مليار دولار. كانت الفوائد المرتفعة في المصارف اللبنانية على الودائع، جاذبة، وكذلك الأزمة المالية ـ الاقتصادية العالمية (بدءاً من أيلول/ سبتمبر 2008) التي ألقت بمفاعيلها السلبية على منطقة الخليج، وكانت سبباً في هجرة أموال من هناك نحو بيروت. ولكن، بالتأكيد، كان لتوافق الدوحة أن يكون الممرّ والمظلّة لهذه الحركة النقدية، منذ عام 2011، بدأ العجز في ميزان المدفوعات اللبناني، وبدأ الانحسار في تدفّق المال الخليجي نحو بيروت، الأمر الذي ازداد بعد التسوية الرئاسية عام 2016، ثم وصل إلى قوّة أكبر في مرحلة ما بعد يوم بيان استقالة الحريري من الرياض، يوم 4 تشرين الثاني/ نوفمبر2017. في فترة ما بعد إلغاء ترامب للتوقيع الأميركي على الاتفاق النووي، عام 2018، أخذ الضغط الأميركي على حزب الله، وعبره طهران، شكلاً اقتصادياً، ولم يأخذ الشكل الذي أخذه عامي 2004 و2005، الضغط الأميركي على دمشق في بيروت، من خلال استقطاب واشنطن لشريحة اجتماعية لبنانية كبيرة ضد الوجود السوري.

يمكن هنا الرجوع إلى الماضي: كانت بيروت في أيلول/ سبتمبر 1958، من خلال توافق واشنطن والقاهرة على فؤاد شهاب رئيساً للبنان، مدخلاً إلى توافق القوة العالمية الكبرى مع القوة الإقليمية الكبرى، في ظلّ توتّر علاقات الرئيس جمال عبد الناصر مع موسكو. في 1 حزيران/ يونيو 1976، عندما دخل الجيش السوري إلى لبنان، كان ذلك بتوافق أميركي ـ سوري، من دون رضا السوفيات. التوتّر الأميركي ـ السوري، الذي بدأ عام 1981، تم حلّه من خلال اتفاق الطائف، في خريف 1989، في اللحظة السياسية التي بان فيها أنّ هناك بداية غروب للقطب السوفياتي العالمي.

السؤال الآن: هل تكون بيروت ميداناً لتلاقٍ بين طهران وواشنطن، كما كانت بغداد نوري المالكي عام 2006، وكما توحي المؤشّرات بأنّ الأمر كذلك، مع غلبة أميركية نسبية في الحكومة العراقية الجديدة، برئاسة مصطفى الكاظمي؟

* كاتب سوري

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ الصدر المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: حسن عليق إيلي حنا امل الأتحري
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فرداس ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن
■ للفاكس: 01759500 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الأوائل 15 ـ 01/666314 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper

قضية

يطلق الخبراء الروس على العمليات النفسية الغربية ضد روسيا وسوريا وخصوم الولايات المتحدة إجمالاً مصطلح «حرب معلومات». ما يواجهه بشار الأسد اليوم ليس جديداً عليه، بل خبره منذ عقد على الأقل. لكنه مشابهٌ جداً لما تعرّض له فلاديمير بوتين ابتداءً من 2016 حتى الأمس القريب

«حرب المعلومات»: الأسد هدف بعد بوتين

فراس الشوفي

مَرَّ شهرٌ على نشر وكالة «ريا فان» الروسية استطلاعاً للرأي ومقالات تهاجم الرئيس السوري، بشار الأسد، بالتوازي مع نشر دبلوماسي روسي سابق مقرّب من الغرب مقالةً نقديةً حادة ضدّ الأسد. الوكالة أعلنت لاحقاً أن موقعها تعرّض للقرصنة وأزالت المنشورات عن صفحاتها، ثم نشرت مواد معاكسة، لكن ما نُشر كان كافياً لتنطلق «حرب معلومات» جديدة ضد الأسد والدولة السورية، في استكمال لسلسلة لم تنقطع من الحروب الغربية الهجينة التي استهدفت دمشق مع بدء الصراع في 2011. لئن كانت الأهداف متعدّدة ومعروفة، وتتقاطع فيها المصالح بين الأعداء وحفنة من الذين يجلسون على ضفّة الأصدقاء، قبل عام من الانتخابات الرئاسية السورية، فإنها اتخذت من العلاقة الروسية ـ السورية بالتصويب عليها انطلاقاً ممّا نشرته «فان» عنواناً للمعركة، بقصد زعزعتها وخلخلة التماسك الذي عبّرت عنه الدولة على مستوى الإدارة السياسية والعسكرية، وانتظام العلاقة مع الحلفاء وتجذّرها، ولا سيّما مع روسيا وإيران.

هذا التماسك متعدّد الوجوه، على رغم «حصار التجويع والتركيع» الذي فاقمته تأثيرات جائحة كورونا أخيراً (سيزيدها جوراً وقسوةً دخول قانون العقوبات الأميركية «قيصر» حيّز التنفيذ خلال أسابيع)، هو الذي يمدّ الموقف السوري بالصلابة في الدفاع عن السيادة والوحدة وحماية الموارد السيادية في أي حل سياسي مقبل. وعلى ما يُظهره السلوك السوري العام، في الحرب العسكرية المباشرة عبر إصرار الجيش على استعادة كل شبر من الأرض، وبالمفاوضات عبر رفض الدولة النقاش حول أي هياكل لتنطلق «حرب معلومات» جديدة ضد أقل من عامين. أزيلت المقابلة لاحقاً عن موقع القناة لـ«مخالفتها المعايير الرئيسية للمحطة ولورود معلومات لا تستند إلى حقائق مؤكدة». لكن خطوة مسافر، الذي احتفظ بمنشور تحت عنوان «خريف البطريرك» على صفحته عبر «فايسبوك»، في إشارة إلى الأسد، «استفزّت» النائب في البرلمان السوري خالد العبّود، فدفعته «حماسته» للدخول في «لعبة تنس»، مهدداً روسيا ورئيسها، على «فايسبوك» أيضاً!

كيف تشتغل «حرب المعلومات»؟

«حرب المعلومات» هو مصطلح عسكري روسي يرادف ما يسمّيه الجيش الأميركي «العمليات النفسية». وكان حتى الأمس القريب عالماً مجهولاً من غالبية القوى السفارة الروسية لدى بيروت ببيان قاسي اللهجة، نَعتت فيه ما يُروَّج عنّ العلاقات الروسية ـ السورية بـ«حلقة من مسلسل تضليلي مدسوس».

لكنّ حملة الأكاذيب وجدت من يُدعّمها خلال الأسبوعين الأخيرين، في اللقاء الذي بثّته «روسيا اليوم» العربية، مساء الثلاثاء في 5 أيار/ مايو الماضي عبر برنامج «قصارى القول». إذ استضاف الصحافي العراقي سلام مسافر رجل الأعمال السوري فراس طلاس، في مقابلة هي الثالثة في أقل من عامين. أزيلت المقابلة لاحقاً عن موقع القناة لـ«مخالفتها المعايير الرئيسية للمحطة ولورود معلومات لا تستند إلى حقائق مؤكدة». لكن خطوة مسافر، الذي احتفظ بمنشور تحت عنوان «خريف البطريرك» على صفحته عبر «فايسبوك»، في إشارة إلى الأسد، «استفزّت» النائب في البرلمان السوري خالد العبّود، فدفعته «حماسته» للدخول في «لعبة تنس»، مهدداً روسيا ورئيسها، على «فايسبوك» أيضاً!

كيف تشتغل «حرب المعلومات»؟

«حرب المعلومات» هو مصطلح عسكري روسي يرادف ما يسمّيه الجيش الأميركي «العمليات النفسية». وكان حتى الأمس القريب عالماً مجهولاً من غالبية القوى المناهضة للولايات المتّحدة الأميركية. في 2016، وتحديداً بعد الانتخابات الداخلية في حزب «روسيا الموحدة» وانتخابات مجلس الدوما، توصّل خبراء روس إلى تفكيك آلية عمل حرب المعلومات التي عادةً ما تكون موجّهة ضد الزعماء والرؤساء والأنظمة والكيانات التي تعارض السياسات الأميركية. غير أن فهم آلية عمل هذا النوع من الحرب لا يعني القدرة على هزيمة الخصوم بأسلحة موازية، مع تفوّق أميركا الإعلامي وخبرتها الدعائية وسيطرتها على كبريات وكالات الأنباء العالمية، على رغم الدور الذي تقوم به «روسيا اليوم» في أميركا وأوروبا، لشرح قضيّتَي سوريا وأوكرانيا من الوجهة الروسية.

واحدٌ من أبرز هؤلاء الخبراء هو أندريه مانويلو، العميد المتقاعد من إحدى وكالات الاستخبارات الروسية، وخبير الحرب الإلكترونية و«الحرب المعلومات»، وأستاذ العلوم السياسية في جامعة موسكو الحكومية. برز دور مانويلو في أكثر من نشاط عبر عمله مع خبراء آخرين على تفكيك حملات «الشيطنة» الكثيرة التي خيضت ضد الرئيس فلاديمير بوتين، في السنوات الخمس الأخيرة. فقبيل انتخابات الدوما 2016 انطلقت من بريطانيا حملة إعلامية عنيفة ضد بوتين، تبنّتها الوكالات العالمية سريعاً، في ما يُعرف بقضيّة العميل الروسي الكسندر ليتفينينكو. «استحضر البريطانيون هيكله العظمي»، كما يقول النائب الروسي أندريه لوغوفوي، في محاولة لاتهام بوتين شخصياً بمقتله مسموماً بـ«البولونيوم ـ 210» المشعّ عام 2006 في لندن. وبعد وقت قصير، نشرت قناة «بي. بي. سي. 2» البريطانية، فيلماً وثائقياً عن «فساد بوتي بوتين والأسد هدفان للدعاية الغربية ن°1» قبل تسريب ما يعرف بـ«وثائق بناما».

طاولت التسريبات البنامية العديد من الشخصيات والكيانات في العالم، لكن رجال الاستخبارات الروسية وخبراء حروب المعلومات، مثل مانويلو، توصّلوا إلى أن الهدف الرئيسي من هذه التسريبات هو التلاعب بالقاعدة الشعبية والحزبية والنخبة المحيطة بالرئيس الروسي قبل استحقاقات الانتخابات لإحداث الانقسامات والتردّد بينها، عبر تشويه صورته التي اجتهد في بنائها منذ 2000. لم يكد يمرّ عامان حتى تجدّدت الحملة في ما يعرف بقضية العميل السوفياتي/ البريطاني سيرغي سكريبال الذي وجد مسموماً أيضاً في لندن في تموز/ يوليو 2018 بسمّ عسكري روسي هو غاز الأعصاب «نوفيشوك»، كما ادّعى جهاز الاستخبارات البريطانية «أم. أي.6». جاءت الحملة في عزّ التلفيقات الغربية ضد سوريا والقوات الروسية العاملة فيها باستخدام الأسلحة الكيميائية في الغوطة الشرقية، الأمر الذي عادت وسائل إعلامية غربية وكشفت تفاصيل الأكاذيب فيه قبل أشهر. مع ذلك، تستمر «منظّمة حظر الأسلحة الكيميائية» باستخدامه سيفاً مصلتاً ضدّ سوريا وروسيا مع كل استحقاق كبير.

بوتين والأسد هدفان للدعاية

في رسالة مكتوبة لـ«الأخبار»، يُشرّح مانويلو بالتفصيل مراحل عمل ومنهج «حرب المعلومات» الذي «تعتمده أميركا وبريطانيا خاصة لمحاربة الصين وروسيا وإيران وفنزويلا وكوريا الشمالية وحزب الله»، مستخدماً أمثلة عن الهجمات المتكرّرة على بوتين. الهجوم الجديد ضد الرئيس السوري يبدو نسخة طبق الأصل للهجمات ضد نظيره الروسي، مع فارق وحيد هو أن ما استُندت إليه وسائل الدعاية الأميركية وتوابعها الغربية والعربية والتركية والإسرائيلية والمسؤولون الأميركيون لم ينطلق من لندن، إنّما من موسكو. يضيف مانويلو: «هدف حرب المعلومات هو كسر مقاومة العدو وإخضاع عقله لإرادة طرف ثان. وهي عادة تستهدف شخصاً أول في البلد، من أشخاص معروفين ومعلومات رنّانة، ثم من وسائل الإعلام الوطنية والأجنبية التي تفسّر الأخبار بطريقتها الخاصة، وتبدأ من الأشخاص الرئيسيين العاملين حول الهدف وأعمالهم».

تعتمد تلك الحرب على «ردود الفعل على أحداث معينة، عبر نشر معلومات كاذبة وشائعات ولقلقة على الشبكات الاجتماعية، بقصد الاستفزاز وتشجيع السياسيين على ردود الفعل الانفعالية». وفي كثير من الأحيان «يشارك في عملية تأجيج الهجمات الإعلامية صحافيون مستقلون لإعطائها صدقية وترخيمها»، مع اقتناع العميد السابق بأن «هؤلاء الصحافيين ينفذون الأمر السياسي لأسباب عدة». وفق دارسة الخبير وزملائه، تستخدم آلية العمل طريقتين: الأولى «بطاقات التعريف»، عبر وسم اسم الهدف بصفة معيّنة بعد خلق فضيحة، والثانية «بالون الاختبار... تهدف إلى أقصى استفزاز للخصم لدفعه نحو الردّ، وكلا الأسلوبين، استخدما في معارك إسقاط الرئيس اليوغوسلافي سلوبودان ميلوزوفيتش والليبي معمر القذافي والصربي رادوفان كارادجيتش». ويؤكّد مانويلو أن «محاولات تصرفات النخبة لتحقيق هجوم مضادّ على المراكز الغربية المتخصصة في حرب المعلومات هي إجمالاً غير منظمة، وبالتالي تزيد إمكانية الوقوع في الفخ».

تُتَّبع حالة سورياً على منهاج العمل السابق يفضي إلى: أوّلاً، استغلّ خصوم سوريا ما نشر في «فان» وما كتبه الدبلوماسي السابق إلكسندر إكسينيوف المقرّب من الغرب، الذي كشف بوضوح الخلفية الحقيقية الغربية للحملة، وهو ضرورة أن يقف الأسد عند حدود الأراضي التي تسيطر عليها الدولة اليوم، والاكتفاء بذلك لتحقيق حلّ سياسي. ثمّ أجّجت الحرب تصريحات جيفري وإعادة تدوير الأنباء وصناعتها في الوسائل الأخرى. وحين بدأت الحملة تفقد قوّتها، مع النفي الرسمي الروسي المتكرّر والصمت الرسمي السوري، جاءت حلقة طلاس مع مسافر، على طبق من فضّة، فزخّمت الحملة قوتها في وسائل الإعلام الغربية والعربية.

بين حين وآخر، دأب مسافر على استضافة طلاس دون أي مبرّر مهني. فرجل الأعمال السوري الذي أوقف في الإمارات المتّحدة قبل أشهر على خلفيّة دعمه تنظيم «داعش» في ريف حلب الشرقي، ليس عضواً في أي من هيكليات المعارضة السورية، ولا مسؤولاً حالياً أو سابقاً في دمشق. إنّما هو مجرّد رجل أعمال يراس تياراً وهمياً يسمّى «الوعد»، ويتفق مع مسافر على العداء للأسد والتسويق لتنظيم «الإخوان المسلمون»، وعلى توصيف الساحة السورية بمصطلحات طائفية، والحديث عن السوريين والعراقيين في مقابلاته بوصفهم سنّة وشيعة وأكراداً وعلويين ودروزاً وما إلى هنالك من تقسيمات. وإذا كان الهدف المهني من استضافة طلاس هو كشفه «معلومات» سريّة عن الفساد في سوريا، فإنه حتماً ليس الشخص المناسب، لكون ثروة عائلته واحداً من أبرز مظاهر الفساد، وعلاقات العائلة وفراس طلاس مع الغرب لا تجعله مصدراً «موثوقاً» للروس. وفي حين حاول كثيرون تفسير إطلالة طلاس عبر «روسيا اليوم» كرسالة روسية إلى الأسد، أجاب أكثر من مصدر روسي أمني ودبلوماسي سألتهم «الأخبار» عن معنى المقابلة بأنها «محاولة تسويق لطلاس في روسيا وليس العكس».

هذه ليست المرة الأولى التي يفتعل فيها مسافر ضجّة. ففي آخر زيارة عمل له لبيروت، استضاف النائب السابق وليد جنبلاط عشيّة إطلاقه مواقف معادية لموسكو في بيروت ومؤيّدة لحصر علاقة الجيش اللبناني بالأميركيين. في تلك المقابلة، أطلق جنبلاط شائعته الشهيرة حول لقاء جمع الأسد برئيس وزراء العدو الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، ما اضطر الخارجية الروسية والسفارة لدى بيروت إلى تكذيب الخبر، وخصوصاً أن الأخير ادّعى أن مصدره مسؤول روسي. حتى إن بوتين نفسه وجّه إلى مسافر في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي ملاحظة بالغة الأهمية على الهواء مباشرة، ضمن مقابلة أجرتها «روسيا اليوم» معه بمشاركة مراسلين آخرين. لكنّ صفحة القناة على «فايسبوك» نشرت مقطع الفيديو تحت عنوان «بوتين يمازح مسافر». والواقع أن مسافر حاول الإيحاء بأن روسيا تتدخّل في الانتخابات الرئاسية الأميركية، فردّ بوتين عليه: «أنت تعمل في قناة روسيا اليوم، صحيح؟ وبفضل أشخاص مثلكم سيتمّ اتهام روسيا بالتدخل في الانتخابات الأميركية»!

وفي زيارة بيروت الأخيرة، لم يخفِ مسافر، أمام زملاء لبنانيين، أنه يحصل على موازنة خاصّة من القناة، ويملك هامشاً مستقلاً عن عملها بفضل علاقة الصداقة التي تربطه بوالد مديرة القناة العربية الأردنية، مايا مناع. وتعود تلك العلاقة إلى الأيام التي قضاها مسافر في عمّان أيام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين. ولكي يكتمل المشهد، وقع النائب السوري خالد العبّود في فخّ استفزاز حلقة «روسيا اليوم»، مخالفاً المنهج السوري التقليدي بإهمال الشائعات، فجاء ردّه مكمّلاً عن غير قصد لتأكيد وجود خلاف روسي ـ سوري، في سياق طبيعي لحرب المعلومات. فانشغل السوريون المؤيّدون للدولة بنفي كلام العبود، وانشغل الروس في طمس ما فعله مسافر، ما أحدث بلبلة في معسكر التحالف الروسي ـ السوري ـ الإيراني. في المقبل من الأيام، ستتعاظم «حروب المعلومات» والضغوط الاقتصادية لانتزاع التنازلات قبل التسويات. يقول مانويلو إن «الطرف الذي يفوز في هذه الحرب هو القادر على توقّع خطوات وأفعال خصومه، ثم تحقيق الرد غير المتوقّع... الأهم هو الصبر والتزام السكون، على طريقة الخدعة التي فعلها بوتين بوسائل إعلام روجّت لاختفائه، قبيل أن يظهر في سوتشي ويكذّبها... بصمت».

ما يجري هو «حرب معلومات» جديدة ضد الأسد والدولة في سلسلة لم تنقطع منذ 2011 (أ ف ب)

> رأى خبراء روس أن تسريبات بناما هدفها ضرب القاعدة والنخبة المحيطة ببوتين
>
> لا يخفي مسافر، العامل في «روسيا اليوم»، أنّ لديه هامش استقلالية عن القناة

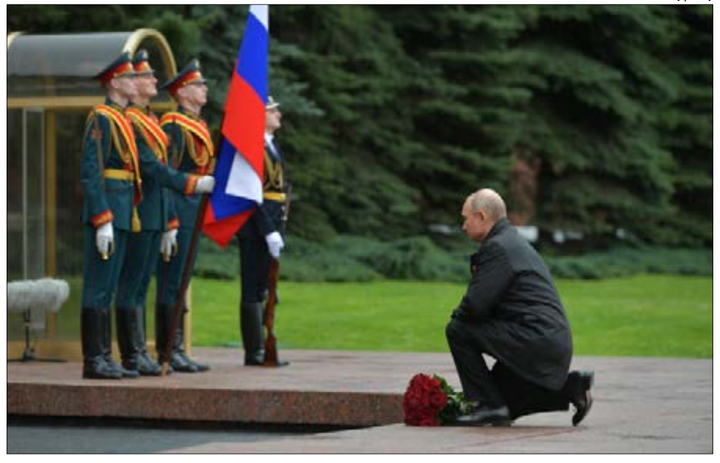

فلاديمير بوتين خلال إحياء ذكرى «يوم النصر» قبل أيام (أ ف ب)

تقرير

الدستور الجزائريّ بين التعديل والتغيير

لينا كنوش

أطلع الرئيس الجزائري، عبد المجيد تبون، الأحزاب السياسية والنقابات وممثلي المجتمع المدني على مشروع أوّلي للإصلاح الدستوري بهدف التشاور معهم. أثارت هذه الصيغة الأولية، الناجمة عن عمل فريق من الخبراء المكلّفين من رئيس الدولة في كانون الأول/ديسمبر الماضي، نقاشاً محتدماً في البلاد، خاصة في أوساط الخبراء الدستوريين. ويرى الباحث في مجال القانون الدستوري مأسينيسين شربي أن الدستور الحالي وصيغة الإصلاح المقترحة لا يمثلان في الواقع سوى «نسختين معدّلتين لدستور سنة 1976، القانون الأساسي الأكثر سلطوية في الجزائر المستقلّة». أما الخبيرة الدستورية الجزائرية فتيحة بن عبو، فتبدي دهشتها من الحماسة التي يظهرها المتخصّصون عند مناقشة «مسودة» ستعدّل بالضرورة، مشيرة إلى أننا لم نصل بعد إلى المرحلة الأهم التي سيجري خلالها «حوار وطني معمّق يليه استفتاء شعبي».

بالعودة إلى شربي هو يعتقد أن التغيير الجذري للنظام السياسي، انسجاماً مع مطالب الحراك، يتطلّب كذلك تغييراً للدستور، تماماً كما حدث في تونس، وليس مراجعة دستورية تتضمّن بعض الإصلاحات الطفيفة. «بعد أن أطاح التونسيون بالرئيس بن علي في 14 كانون الثاني (يناير) 2011، وبدلاً من انتخاب رئيس جديد للجمهورية يتمتّع بصلاحيات هائلة طبقاً لدستور 1959 الاستبدادي، جمّدوا الأخير عبر المرسوم ـ القانون الصادر في 21 آذار (مارس) 2011. مكّنهم هذا المرسوم، الذي أضحى بمكانة الدستور المصغر، أي المرحلي، من تنظيم المؤسسات العامة خلال المرحلة الانتقالية. تم استبدال هذا المرسوم بالقانون الدستوري الذي صوّتت عليه الجمعية الوطنية، المنتخَبة ديمقراطياً، في 16 كانون الأول (ديسمبر) 2011، والغت في هذه المناسبة دستور 1959 وسنّت دستوراً صغيراً ثانياً تم العمل به حتى تبني الدستور الحالي في كانون الثاني (يناير) 2014»، وفق الباحث الجزائري. وهو مقتنع بأن السبيل الوحيد لتمثيل جميع التيارات السياسية في البلاد وتجسيد وحدة شعبها هو أن تقوم جمعية تأسيسية منتخبة ديمقراطياً على بلورة مشروع دستور أولي. يحافظ المشروع الأولي للإصلاح الدستوري على صلاحيات واسعة لرئيس الجمهورية سبق أن منحها له دستور 1976. فالرئيس، وفقاً لشربي، «إضافة إلى احتفاظه بصلاحية تنظيم الاستفتاء حول الشؤون الدستورية والسياسية، يتمتّع بحق النقض تجاه القوانين التي يتبناها البرلمان، ويستطيع حل مجلس النواب في البرلمان (الجمعية الوطنية الشعبية)، وتعيين ثلث أعضاء مجلس الأمة فيه، وكذلك الولاة والجنرالات، من دون أي رقابة برلمانية أو حكومية. هو صاحب القرار أيضاً في مجالَي السياسة الخارجية والدفاعية. لا يترتب على هذه الصلاحيات الممنوحة للرئيس أي مسؤوليات سياسية أو قانونية ولا تمكن إقالته من منصبه».

على رغم أن المشروع المذكور يعزّز سلطة الوزير الأول عبر تسميته رئيساً للحكومة، ويزيد مسؤولية الأخيرة أمام البرلمان، فإن الأمر لا يتعدّى في نظر شربي البعد اللفظي. «رئيس الحكومة، منذ عام 1988، ليس مسؤولاً أمام البرلمان وحده بل أولاً أمام رئيس الجمهورية القادر على إقالته في أي لحظة، منذ عام 1976. أما مطلب الدولة المدنية الذي رفعه الحراك تعبيراً عن معارضته الدولة العسكرية، فلم يتم لحظه في أيّ من بنود المشروع الأولي. انطلاقاً من هذه الوقائع، يسهل الاستنتاج بأن غالبية التعديلات المقترحة ثانوية ولا تمسّ بالقلعة الرئاسية».

فضلاً عن ذلك، لم يحُل سماح المشروع الأولي بولايتين رئاسيتين لا أكثر دون زيادة سلطة الرئيس عبر استحداث منصب نائبه. فاستحداث مثل هذا المنصب، في رأي شربي، يتيح ضمان استمرارية النظام للدولة العميقة، لأن نائب الرئيس قادر على إنهاء ولاية الرئيس، في حال شغور منصبه لأيّ سبب من الأسباب، من دون الاضطرار إلى تنظيم انتخابات رئاسية. «على عكس نائب الرئيس الأميركي، الذي يُنتخب بالتزامن مع المرشح لمنصب الرئاسة، من يعيّن نائب الرئيس الجزائري هو الرئيس خلال ولايته، ما يمنحه القدرة على اختيار خلفه».

المشروع الأولي يُدخل تغييراً جذرياً على العقيدة العسكرية الجزائرية، عبر تمكين الجيش من المشاركة في عمليات حفظ سلام خارج حدود البلاد، وهو أمر أثار تساؤلات كثيرة مع أن تدهور الظروف الأمنية وتزايد التهديدات الإرهابية قرب الحدود قد يبرّران مثل هذا التغيير عند البعض. وبالإجمال، الخبراء الدستوريون لا يرون مسوغاً لـ«تضخم» عدد البنود الواردة في المشروع الأولي وعدد منها لا أهمية دستورية له.

وتجزم فتيحة بن عبو أن الصيغة المشار إليها ليست سوى مسودة ساهم في إعدادها عدد كبير من الاختصاصيين، وهي تبقى قابلة للتعديل. «تلتهب الحماسة وننسى أن الأهم هو الحوار المعمّق الذي سيمكّن الجزائريين من أخذ خياراتهم على بصيرة. في النهاية، لا بد من التشاور على نطاق واسع وإجماع الفاعلين حول الإصلاح». مع ذلك، رفض «ميثاق البديل الديمقراطي»، وهو تجمّع عريض يضم أحزاباً وجمعيات وشخصيات من المجتمع المدني، المشروع الأولي وطالب بصياغة دستور جديد. غير أن بن عبو تؤكد أن «الميثاق، لو وافق على مراجعة الدستور في عام 2019، لما كنا وصلنا إلى الحائط المسدود اليوم. سياسة المقعد الشاغر لم تعطِ شيئاً. هذه التنظيمات لم تدرك أنه ليس بالإمكان الحصول على كل شيء دفعة واحدة وأن الانتقال إلى التداول الديمقراطي على السلطة قد يتطلّب سنوات. السياسة هي فنّ الممكن. المهم هو القدرة على انتزاع التنازلات عندما تكون الظروف مؤاتية لذلك».

تقرير

شتاء أميركا الطويل: موجة وباء ثانية... أشدّ فتكاً

لن يكون لشهادة مسؤول اميركي سابق تحدّث عن سوء استجابة بلاده للوباء، وبشّر بـ«شتاء قاتم» ينتظر الولايات المتحدة، اثرٌ من شأنه ان يبدّل طريقة عمل إدارة دونالد ترامب لجهة الأزمة الصحية. إذ تتلهّى الإدارة، بشخص رئيسها، منذ أسابيع طويلة، بتحميل الصين مسؤولية الكارثة التي حلّت على البلد والعالم، حتى وصل بها الأمر إلى التهديد بقطع العلاقات الثنائية

كلّما تفاقمت الأزمة الصحية وتداعياتها الاقتصادية، اشتدّ الصراع السياسي في الولايات المتحدة؛ دونالد ترامب يسعى بأيّ ثمن إلى مواصلة مهمّاته الرئاسية لأربع سنوات إضافيّة، ويتقدّمه خصومه في الحزب الديموقراطي، جنباً إلى جنب وسائل الإعلام الليبرالية، بتسليط الضوء على إجراءات متأخّرة وغير متّسقة اتّبعتها إدارته في مواجهة الوباء. إجراءاتٌ باتت، وفق شهادة أدلى بها مسؤول حكومي سابق أمام لجنة فرعيّة في مجلس النواب، تُهدّد البلاد بموجة وبائية ثانية أشدّ فتكاً من تلك الراهنة. قبل يومين، دقّ ريك برايت ناقوس الخطر حول الإجراءات غير المناسبة المتبعة لمكافحة انتشار فيروس كورونا بعدما اقترب عدد الإصابات من مليون ونصف مليون حالة، في موازاة ارتفاع عدد الوفيات إلى نحو 88 ألفاً. برايت، الذي أقيل الشهر الماضي من منصبه في رئاسة «هيئة البحث والتطوير المتقدّم للطب الحيوي» (باردا) (الوكالة المكلّفة تطوير لقاح ضدّ «كورونا») الحكوميّة، قدّم الأسبوع الماضي شكوى كميلغ عن مخالفات بعد خفض رتبته، بسبب معارضته استخدام أدوية «كلوروكين» و«هيدروكسي كلوروكوين» المضادة للملاريا لمعالجة مرضى «كوفيد ــ 19»، وهو علاج روّج له ترامب مراراً، رغم الأدلّة العلميّة القليلة على نجاعته.

في حالة فشلها في نشر أدوات مواجهة منسّقة لـ«كورونا»، حذّر برايت من إمكان أن تشهد الولايات المتحدة عام 2020 «الشتاء الأشدّ قتامة في التاريخ الحديث»، راسماً صورة قاتمة عن قدرة الحكومة الأميركية على إدارة موجة ثانية من الفيروس، يُتوقّع أن تتزامن مع موسم الإنفلونزا في الشتاء. كما تحدّث عن أن بلاده لا تزال تفتقر إلى خطة شاملة لتوفير مخزون من الإمدادات الأساسية، مثل المسوحات اللازمة لإجراء فحوص الكشف عن المرض، فيما «تتضاءل فرصنا». وقال: «إذا فشلنا في تطوير استجابة وطنية منسّقة تعتمد على العلم، أخشى أن يتفاقم الوباء ويطول وجوده ويتسبّب في أمراض ووفيات غير مسبوقة»، مشيراً إلى أن رؤساءه «رفضوا» تحذيراته في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، بشأن النقص الحادّ في الإمدادات الطبية الضرورية، مثل الكمامات ولوازم الفحوص والأدوية ونقص التمويل. لكن ترامب يبدو واثقاً، كما كرّر أمس رداً على برايت، من التوصل إلى لقاح ضدّ الفيروس بحلول نهاية العام، «وربما في وقت أقرب».

> كرّر ترامب حديثه عن إمكانية التوصّل إلى لقاح بحلول نهاية العام

البلاد، الغارقة في كارثة لا تزال تتمدّد، يبدو رئيسها مركزاً على النيل من الصين بوصفها صاحبة الوباء. وفي مواجهة كلامية ليست معروفة خواتيمها، لمّح ترامب إلى مزيد من التدهور في العلاقات بين الجانبين، بعدما هدد بقطع جميع العلاقات مع بكين، بسبب طريقة إدارتها للأزمة الصحيّة. ويصرّ ترامب منذ أسابيع على القول إنه كان بالإمكان تجنّب الحصيلة الثقيلة التي تجاوزت 300 ألف وفاة حول العالم لو أن الصين تصرّفت بمسؤولية لدى ظهور الفيروس في ووهان. وفي مقابلة مع «فوكس بزنس» بُثت أول من أمس، عبّر عن شعوره «بخيبة أمل كبيرة» من موقف بكين، رافضاً فكرة التحدّث مباشرة إلى الرئيس شي جين بينغ لتخفيف التوتّر. ولدى سؤاله عن التدابير الانتقامية التي قد يتّخذها، هدّد بقطع العلاقات الثنائية: «إذا فعلنا ذلك، ماذا سيحدث؟ سنوفّر 500 مليار دولار»، هي حجم واردات بلاده من الصين.

كذلك، لفت الرئيس الأميركي إلى أن الوباء أرخى بثقله على الاتّفاق التجاري، قائلاً: «ما كان عليهم أن يسمحوا أبداً بحدوث هذا... أبرمت اتفاقاً تجارياً عظيماً، وها أنا الآن أقول إن مشاعري اختلفت. لم يكن الحبر قد جفّ عندما حلّ الوباء. مشاعري اختلفت». لكن مستشار البيت الأبيض، لاري كودلو، سارع إلى التأكيد أن الاتفاق مستمرّ، وأن البلدين ما زالا يعملان على صعيد التجارة، فيما حثّت بكين واشنطن على لقائها في منتصف الطريق وتعزيز التعاون في مكافحة «كوفيد ـ 19»، بما «يخدم المصالح الجوهرية للشعبين، ويؤدي إلى السلام والاستقرار العالميين».

دفّ مسؤول اميركي ناقوس الخطر حول الإجراءات المتّبعة في بلاده لمكافحة الوباء (أ ف ب)

العراق

بغداد في مواجهة «داعش»: الفساد حاضرٌ أيضاً

جملة تحديات تواجه مصطفى الكاظمي. المشهد الأمني إلى المزيد من التعقيد: «داعش» يواصل منذ أسابيع حفلة «غزواته» شبه اليوميّة في المحافظات الشماليّة والغربيّة. أسئلةٌ عديدة تفرض نفسها حول استراتيجيّة التنظيم في مرحلة «مابعد البغدادي» أوّلاً، وأدوات الحكومة الاتحاديّة لمواجهة هذا التحدّي ثانياً

بغداد ـ **الأخبار**

في الساعات القليلة الماضية، سقط عدد من المدنيين والعسكريين (قتلى وجرحى) من جرّاء هجمات متفرّقة شنّتها خلايا «داعش» في محافظات بغداد وصلاح الدين وديالى. وكانت هذه الهجمات قد تزايدت في «مثلث الموت»، أي المناطق الواقعة بين محافظات كركوك وصلاح الدين (شمال البلاد) وديالى (شرقها). لكن المتحدث باسم وزارة الدفاع، تحسين الخفاجي، أكّد في تصريحات إعلاميّة، أن «القوات الأمنية طاردت العناصر الإرهابيين باتجاه الجبال»، من دون أن يعلن نتائج العملية، محذّراً من أن «داعش» قد استغلّ جائحة كورونا والأوضاع الاقتصادية والسياسيّة لشن عملياته. وقال الخفاجي: «داعش فشل في هجومه الأخير، فلم يستطع أن يسيطر على قرية مبارك (شمال قضاء خانقين، في ديالى)»، لافتاً إلى أن «قيادة العمليات المشتركة لن تسمح للتنظيم بالسيطرة على أي جزء من أراضي العراق كما حدث في السابق».

في السياق، يرى الخبير بالجماعات المتطرّفة هشام الهاشمي، أن «داعش» لا يسعى إلى السيطرة على القرى أو المدن بقدر إرهاق القوات، «لأنه عبْر عن ذلك في منشورات صادرة عنه أواخر العام الماضي». يقول الهاشمي لـ«الأخبار»: «غزوات رمضان أقرب أن تكون روتينيّاً، فهي تقليدٌ متّبع منذ 2011». ويستهدف «داعش» صنوف القوات العسكريّة والأمنيّة (الجيش، الشرطة، الحشد الشعبي...)، إلى جانب المدنيين. وتقول مصادر أمنيّة إن «الغزوات» تشنّها خلايا التنظيم النائمة والسياسيّة في المحافظات الشماليّة والغربيّة، وبعضها وصل أخيراً قادماً من سوريا. والملاحَظ في تكتيكاتها، وفق المصادر، هو «ملاحظة الجهد الحكومي»، إذ حيث تولي «العمليات المشتركة» اهتماماً لمنطقة ما يُرجّح وجود عناصر/ خلايا للتنظيم فيها، يسارع الأخير إلى «تجفيف حركته» وإطلاق عمليّات في منطقة أخرى «ليست في الحسبان». كما تتصف الهجمات بسرعتها وتكبيد خصوم التنظيم أكبر الخسائر الممكنة، علماً بأن رأياً مقابلاً يقول إن التنظيم كان يسعى إلى السيطرة على مناطق لكنّه أخفق، فانتقل إلى تكتيك «اضرب واهرب».

في محاولة لـ«فهم» التكتيك الجديد، تُوجّه أسئلة إلى «العمليات المشتركة» على اختلاف صنوفها، عن جدوى عمليّات التطهير وتعقّب الخلايا في المحافظات الشماليّة والغربيّة، خاصّة أن بعض العمليات بات استعراضيّاً وإعلاميّاً، وأخرى أشبه بـ«شطب المهام». وثمّة من يسأل عن الأعداد المشاركة في عمليات مماثلة، خاصّة أن الأرقام «المعلنة» منافية للواقع، وأقرب إلى أن تكون كذبة إذا ما قورنت بما يجري على الأرض. فالتكاليف المرفوعة تذهب إلى جيوب بعض الضبّاط وشركائهم، وهذا ما يؤكّده أكثر من مصدر أمني تحدّث إلى «الأخبار»، أسفين لتحوّل هذه العمليّات من «مواجهات للحفاظ على الأرواح إلى محطّة لمراكمة الثروات». هكذا، يبدو التحدّي الأمني واحداً من وجوه مكافحة الفساد المستشري في البلاد. فحجم الإنفاق العسكري مقارنة بما يجري اليوم، يوجب السؤال عن جدوى الكثير من العمليات التي أُطلقت أخيراً.

> يعمل التنظيم بمبدأ «اضرب واهرب» بعدما اخفق في السيطرة على مناطق

وفيات

زوجته: ميشلين توفيق توتونجي
ولداه: زياد
المهندس فادي وزوجته سمر ملو وعائلته
ابنته: المحامية سميّة زوجة المحامي الياس رحمة وعائلتهما
أشقاؤه: المحامي جوزف وزوجته مارلين دانيال النباح
مي نجيم أرملة المرحوم أنطوان وأولادها وعائلاتهم
أوديت السكاف أرملة المرحوم جان وأولادها
المهندس الياس وزوجته الدكتورة جوزيان ماضي وعائلته
شقيقته وليد ورغيد أولاد المرحومة سعاد زوجة المرحوم فارس مسلّم وعائلاتهم
وعموم عائلات: السكاف، مسلّم، الحاج شاهين، توتونجي، ملو، رحمة، دالنباخ، نجيم، ماضي وانسباؤهم في الوطن والمهجر
ينعون إليكم بمزيد من الرجاء والقيامة فقيدهم الغالي المأسوف عليه المرحوم
الدكتور
جورج وديع السكاف
الراقد على القيامة والحياة الأبدية أمس الجمعة الواقع فيه 15 أيار 2020 متمّماً واجباته الدينية.
يحتفل بالصلاة لراحة نفسه في تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم السبت الواقع فيه 16 أيار 2020 في كنيسة مار جرجس للروم الملكيين الكاثوليك، حارة التحتا.
نظراً للظروف الراهنة وحفاظاً على سلامة الجميع، نعتذر عن تقبّل التعازي على أن يقام قدّاس وجنّاز لراحة نفسه عندما تسمح الظروف.
للتعازي الاتصال: ميشا 03/270924 ـ زياد 76/933251 ـ فادي 76/555666 ـ سمية 70/119110

ان لله وان اليه راجعون
بمزيد من الأسى واللوعة ننعى إليكم فقيدنا الغالي
المرحوم سامي محمد حسن
(أبو علي)
أحد أعمدة الجالية اللبنانية في ساحل العاج
عقيلته السيدة رجاء جواد يحيى
أولاده: ندى زوجة صلاح الدين المختار، ليلى سامي حسن علي وعقيلته ساره رالي
أشقاؤه: المرحوم الحاج وهبي، المرحوم صلاح، المرحوم سمير، المرحوم الحاج نجيب
شقيقاته: المرحومة الحاجة ميري، المرحومة الحاجة فهيمة، الحاجة منتهى، السيدة سميرة عقيلة المرحوم الحاج حسن خضرا، الحاجة أميرة عقيلة السيد كامل عبد الرضا
حيث سيصل جثمانه الطاهر الى بيروت نهار السبت مساءً
وسيدفن ظهر يوم الاحد في بلدته حناويه ، قضاء صور ، في جبانة العائلة
الأسفون: آل حسن، آل يحيى، آل المختار، آل أبو خليل، آل خضرا ، آل عبد الرضا ، آل سقسوق، آل حدرج، آل نور الدين وجميع أهالي بلدة حناويه، القليلة وقانا.

انتقل إلى رحمة الله تعالى المرحوم
رمزي علي جعفر
المتوفى يوم أمس الجمعة 15 أيار 2020
ووري جثمانه الثرى في كندا
والده: المرحوم الحاج علي حبيب جعفر
والدته: المرحومة الحاجة نديمة زين
زوجته: جوليت سماحة
أولاده: رودي جعفر زوجته جومانا داغر،
جانين زوجة شارلي درزي،
روني جعفر زوجته دانيانا بطركي
أشقاؤه: شوقي، عدلي، حبيب والمرحوم الحاج نشأت
شقيقاته: لبنى، ناهد ودينا
نرجو ممن عرفه أن يذكره في صلاته ويدعو له بالرحمة والمغفرة للفقيد الرحمة ولكم الأجر والثواب
إنّا لله وإنّا إليه راجعون
الآسفون: آل جعفر، سماحة، زين، داغر، درزي، بطركي
وعموم أهالي بلدة جويا.

عقارات للبيع

أرض للبيع في منطقة شويت ما بين عاليه و بعبدا. كاشفة بحراً جزيلا موقع مميز حوالي ال12.000 سعر مدروس و شيك مصرفي مقبول. دون وسيط.
RSI 03.357374

لإعلاناتكم الرسمية
والمبوبة والوفيات
الأخبار
هاتف: 759555 ـ 01
فاكس: 759597 ـ 01

استراحة

كلمات متقاطعة 3449

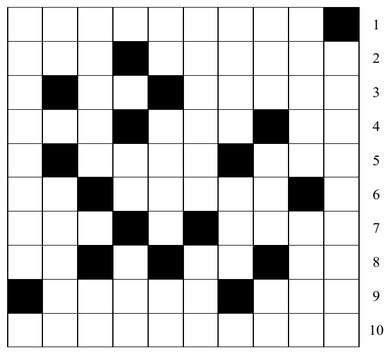

افقيا
1-نوع من أقلام الكتابة – 2- فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي راحل نسّق رموز الجبر ووضع القواعد الأساسية للمعادلات وأبتكر الهندسة التحليلية – إقليم في وسط السعودية – 3- أحد كبار أنبياء العهد القديم كما جاء في التوراة – إسم بودا في الصين – 4- جرذ بالأجنبية – شجر خالد – أفعى ضخمة – 5- منحنى القوس – إبن الملك – 6- يتنحّى جانباً – قطع الشيء – 7- حفرة يحتمي بداخلها الجنود – حصل على الشيء – 8- لاصق النسب – أشار بإصبعه – بسط قدميه – 9- أحرف متشابهة – أرفع مكان في المسجد – 10- مسرحية لبنانية للأخوين رحباني بطولة السيدة فيروز

عمودياً
1-صحيفة إماراتية – 2- جزء من أربعة وعشرين من أجزاء الشيء – إرتفاع الصوت بالبكاء – 3- ضرب بيده على الوجة في الحلبة – عائلة فيلسوف استكلندي راحل – للنداء – 4- من شعوب أميركا الوسطى كانت لهم حضارة متقدمة – قلادة تُلبس في الرقبة – 5- جبل بركاني في أرمينيا التركية على حدود إيران – حرف جزم – 6- دق وفتّ وسحق – بئر في مكة في الحرم الشريف قرب الكعبة يُنسب حفرها الى إسماعيل وأمه هاجر – فكّ العقدة – 7- صرخة بالأجنبية – من الأمراض – 8- من الأشجار – حرف عطف – 9- اضطرم وتلهّب – مدينة أميركية في فلوريدا – 10- صحيفة لبنانية محتجبة

حلول الشبكة السابقة

افقيا
1- كوليت خوري – 2- باسترناك – 3- براندي – مها – 4- اتنا – اي – وز – 5- نبّ – تبريز – 6- بشر – يفرخ – 7- لاسكاريس – 8- ربط – دوي – رت – 9- مر – بيا – 10- لويس اراغون

عمودياً
1- كثبان الرمل – 2- رتبّ – ابرو – 3- لبّان – بسط – 4- باناتشك – خس – 5- تسدّ – برّاد – 6- ختيار- روهر – 7- ور – ي ي ي ي – 8- رنّم – رفس – بعّ – 9- ياهو – ربو – 10- كازاخستان

sudoku 3449

4		8			6		5	
6	7		8	9			1	
3			2				6	
		9	5	4				
5		7				8		4
				6	8	3		
	5				7			9
	4			5	1		8	2
	8		3			5		6

شروط اللعبة
هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أوعمودي.

حل الشبكة 3448

3	8	5	4	9	7	6	1	2
6	9	4	2	1	8	5	3	7
2	7	1	6	3	5	4	9	8
7	5	3	8	6	1	9	2	4
8	1	6	9	2	4	3	7	5
9	4	2	7	5	3	8	6	1
1	2	8	3	4	6	7	5	9
4	3	9	5	7	2	1	8	6
5	6	7	1	8	9	2	4	3

مشاهير 3449

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

فلكي انكليزي (1646- 1719) أول فلكي ملكي قام بتصنيف أكثر من 3000 نجم. إبتكر طريقة لرسم الخرائط الجغرافية ووضع أطلسا للنجوم في السماء

6+5+9+10+8 = ذكر الماعز ■ 1+2+3+11 = عساكر وجيوش ■ 4+7 = ثغر

إعداد
نعوم مسعود

حل الشبكة الماضية: اهل علم الدين

الأخبار
al-akhbar
السبت 16 أيار 2020 العدد 4051

صورة وخبر

في آذار (مارس) الماضي، دارت كاميرا المخرج السوري باسم السلكا لتصوير مسلسل «بورتريه» في دمشق (كتابة تليد الخطيب، إنتاج «إيمار الشام»)، غير أنّ جائحة كورونا عرقلت العمليات، قبل أن يخرج العمل الدرامي من سباق رمضان 2020. أمّا الآن، وفي ظلّ اتّباع الإجراءات الاحترازية اللازمة، يتواصل التصوير في العاصمة السورية. تدور أحداث المسلسل في إطار اجتماعي ــ تشويقي، حول قصّة حب بين «ريما» و«حازم»، تبدأ فصولها من لقاءٍ عابر في ظروف غير اعتيادية، لتثقلها أحقاد ماضٍ عائلي مشترك مجهول، سيلقي بظلاله على مستقبل علاقتهما. «بورتريه» من بطولة فادي صبيح (الصورة)، مديحة كنيفاتي، جلال شموط، سيف الدين السبيعي، أكثم حمادة، نوار يوسف، يزن خليل، جفرا يونس، سليم صبري، نجاح سفكوني وغيرهم. (لؤي بشارة ــ أ ف ب)

إعلان بيروت لمناهضة التطبيع
لن نغفر جرائم «إسرائيل»!

في الذكرى 72 للنكبة، والعيد العشرين للتحرير في لبنان، صدر عن 379 مشاركاً ومشاركة في «الملتقى العربي الافتراضي لمناهضة التطبيع مع العدو الصهيوني»، «إعلان بيروت لمناهضة التطبيع مع العدو الصهيوني». وتلا معن بشور رئيس «المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن» (الذي دعا إلى الملتقى) والأمين العام السابق لـ«المؤتمر القومي العربي» الإعلان الذي جاء فيه: «توافقْنا على إصدار «إعلان بيروت لمناهضة التطبيع مع الكيان الصهيوني» في يوم النكبة في فلسطين، وعشيّة عيد التحرير في لبنان، كخطوة جديدة لإطلاق حملة شعبية عربية مناهضة للتطبيع، لا سيّما في ظلّ الموجة التطبيعية الجديدة التي تشهدها الأمة من خلال تصريحات سياسية، ومسلسلات تلفزيونية رمضانية، وهاشتاغات إعلامية عبر مواقع التواصل». وفي المنطلقات، شدّد الإعلان على أنّ «فلسطين قضية الأمة المركزية، بل هي قضية العدالة الإنسانية برمّتها»، مشيراً إلى أنّ محاولات التطبيع مع العدو الصهيوني الجارية حالياً هي «استمرار لعملية بدأت منذ أن تكرّس نهج التسوية مع العدو الصهيوني كنهج سائد في سياسات بعض الأنظمة والجهات العربية عبر اتّفاقات ومعاهدات وعلاقات علنية وسرية، فجاءت هذه المحاولات، في النهاية، كتشجيع للعدو على المضي في غيّه، وتكريس اغتصابه للأرض والحقوق». وتابع أنّ «مناهضة الأمة وقواها الحية للتطبيع مع العدو هي الوجه الآخر للمقاومة الباسلة التي يواجهها الاحتلال سواء داخل فلسطين أو في لبنان وسورية والتي تثبت يوماً بعد يوم أنها تتحول إلى الرقم الصعب في معادلة الصراع الوجودي في المنطقة». وتضمّن الإعلان سلسلة توصيات من بينها: الدعوة إلى عقد اجتماع تنسيقيّ لكلّ هيئات ومراصد وجمعيات مناهضة التطبيع مع العدو الصهيوني في أول موعد ممكن، لوضع خطّة شاملة لمواجهة التطبيع مع العدو الصهيوني على مستوى الأمة وإنشاء جبهة شعبية عربية تضمّ كلّ المناضلين المناهضين للتطبيع، وإطلاق مرصد عربي شامل لمناهضة التطبيع. كما أكّدت التوصيات «التلازم بين مناهضة التطبيع وبين مقاومة الاحتلال داخل فلسطين، بل بين مقاطعة الاحتلال سياسياً واقتصادياً وأمنياً وثقافياً وتربوياً واجتماعياً، والتأكيد على مركزية القضية الفلسطينية لا لكون الاحتلال الصيهوني يستهدف شعباً عربياً في أرضه وحقوقه فحسب، بل لأن المشروع الصهيوني - الاستعماري يستهدف الأمة كلّها من خلال اغتصاب فلسطين، وتشريد شعبها، ويحاول عبر نشر التطبيع أن يوسع دائرة الاختراق الصهيوني لتشمل الأمة العربية كلّها». كما تضمّنت التوصيات إحياء مكاتب المقاطعة العربية وتطبيق قوانينها، ودعم جهود هيئات ومؤسسات المقاطعة الاقتصادية والاستثمارية والأكاديمية كافة للكيان الصهيوني، ودعوة المرجعيات الدينية إلى تحريم التطبيع مع العدو الذي «ينتهك كلّ يوم مقدساتنا الدينية في القدس وفلسطين»، والتصدي لجميع أشكال التطبيع الإعلامي والفنّي والثقافي التي «تترافق مع شيطنة الشعب الفلسطيني، وإمطار مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام بالكتابات والتدوينات لا سيما الصور والوثائق والأفلام والفيديوهات التي تُبرز جرائم الصهاينة ومجازرهم عبر عشرات السنين، لإظهار التطبيع معهم ليس إلّا شراكة لهم في جرائمهم».

الإعلان كاملًا على موقع «الأخبار»

منوعات

ناي البرغوثي: لن ننسى «بوارید» فلسطين

في الذكرى الثانية والسبعين للنكبة، أطلقت الفنانة الفلسطينية ناي البرغوثي (1966 ـ الصورة)، أمس الجمعة، فيديو كليب جديداً على مواقع التواصل الاجتماعي. تحت عنوان «لن ننسى»، أدّت المؤلّفة الموسيقية وعازفة الفلوت والمغنية المولودة في القدس المحتلّة لأب من عكّا وأمّ من رام الله، أغنية «طَلَّت البارودة» التراثية التي اشتهرت بصوت سناء موسى. تعاونت ناي في هذا العمل مع خليل خوري لناحية تسجيل الصوت والميكساج، فيما تولّت شركة ASH مهمّة الإنتاج. أمّا قصّة «طَلَّت البارودة»، فتعود إلى أيّام خروج الثوار الفلسطينيين للقتال. فحين كان يسقط أحدهم من دون التمكّن من إعادة جثمانه، كان رفاقه يعيدون فرسه وبندقيّته لتعرف زوجته أو أمه أنّه استشهد.

رانيا زغير تقرأ للأطفال على #الكنباية_الزرقا

على الأريكة الزرقاء القريبة إلى قلبها والموجودة في إحدى غُرف منزلها، جلست رانيا زغير (الصورة) وراحت تقرأ للصغار كتابها الأخير «فكرية» الصادر عن «الخيّاط الصغير» في عام 2018. على مدى أربع دقائق، أخذت رانيا الأطفال في رحلة مصوّرة عبر فيديو لافت تولّى إخراجه اللبناني إيلي فهد. فكرة الكتاب الذي تحمل رسوماته توقيع الفنانة نيلوفار أفنان انطلقت من أنّ صاحبته دائمة البحث عن الأفكار. وفيه حكايتان، الأولى عن «فكرية» وهي في طور البحث عن أفكارها، والثانية تجري بعدما وجدت أفكارها وكيفية تعاملها معها. تبدو «فكرية» في هذا الكتاب ساخرة، سريالية، رومانسية وتشغلها الصراعات الدائرة من حولها. الفيديو الذي تم الترويج له عبر هاشتاغ #الكنباية_الزرقا، أبصر النور عبر يوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعي، أوّل من أمس الخميس، على أن تتبعه قريباً تجارب مماثلة أخرى بحسب ما أكّدت زغير في اتصال مع «الأخبار». تأمل صاحبة كتاب «حلتبيس حلتبيس» (2010) ألّا تتعدّى فترة الانتظار الأسبوعين، مشيرة إلى أنّها في كل مرّة ستختار عنواناً من إصداراتها الخاصة صالحاً للقراءة بصوتٍ عالٍ، وتُخرجه بالتعاون مع فهد بقالب بصري جذّاب بعيد عن الاستهال. ولا تخفي زغير رغبتها في أن تجد هذه السلسلة التي تنتجها دار «الخيّاط الصغير» طريقها إلى التلفزيونات المحلّية التي تفتقر منذ فترة طويلة إلى برامج نوعيّة مخصّصة للأطفال.

«إذا الشعب يوماً...»: عروض فايسبوكية

أرغمت جائحة كورونا «نادي لكل الناس» على تجميد عروضه السينمائية الدورية التي كان يقيمها في فضاءات مختلفة. وفي الوقت الذي يحاول فيه العاملون في المجالات الثقافية التأقلم مع ظروف الحجر المنزلي والتباعد الاجتماعي التي فرضها الوباء، يدعو «نادي لكل الناس»، عبر صفحته على فايسبوك، إلى حضور سلسلة من العروض الخاصة بفيلم «إذا الشعب يوماً...» (1990 ـ 28 د) لبرهان علوية (78 عاماً ـ الصورة) التي بدأت أمس الجمعة وتستمرّ حتى الثلاثاء المقبل. تنطلق العروض عند الساعة السابعة مساءً بتوقيت بيروت، على أن يليها حوار مباشر مع مخرج العمل على الموقع الأزرق. في هذا الشريط، يعرض علوية شهادات لأشخاص عاديين عاشوا الحرب الأهلية اللبنانية ومأساتها. ومن خلاله، يسلّط الضوء على ضرورة إقامة محكمة لتحليل أسباب الحرب التي فتكت بالبلاد بين عامَي 1975 و1990، وذلك في سبيل منع تكرارها.

عرض فيلم «إذا الشعب يوماً...»: لغاية الثلاثاء 19 أيار (مايو) الحالي ـ الساعة السابعة مساءً ـ صفحة «نادي لكل الناس» على فايسبوك.

الأخبار
al-akhbar
السبت 16 أيار 2020
العدد 4051 السنة الرابعة عشرة
Samedi 16 Mai 2020 no 4051 14ème année
كلمات
ملحق أسبوعي
www.al-akhbar.com

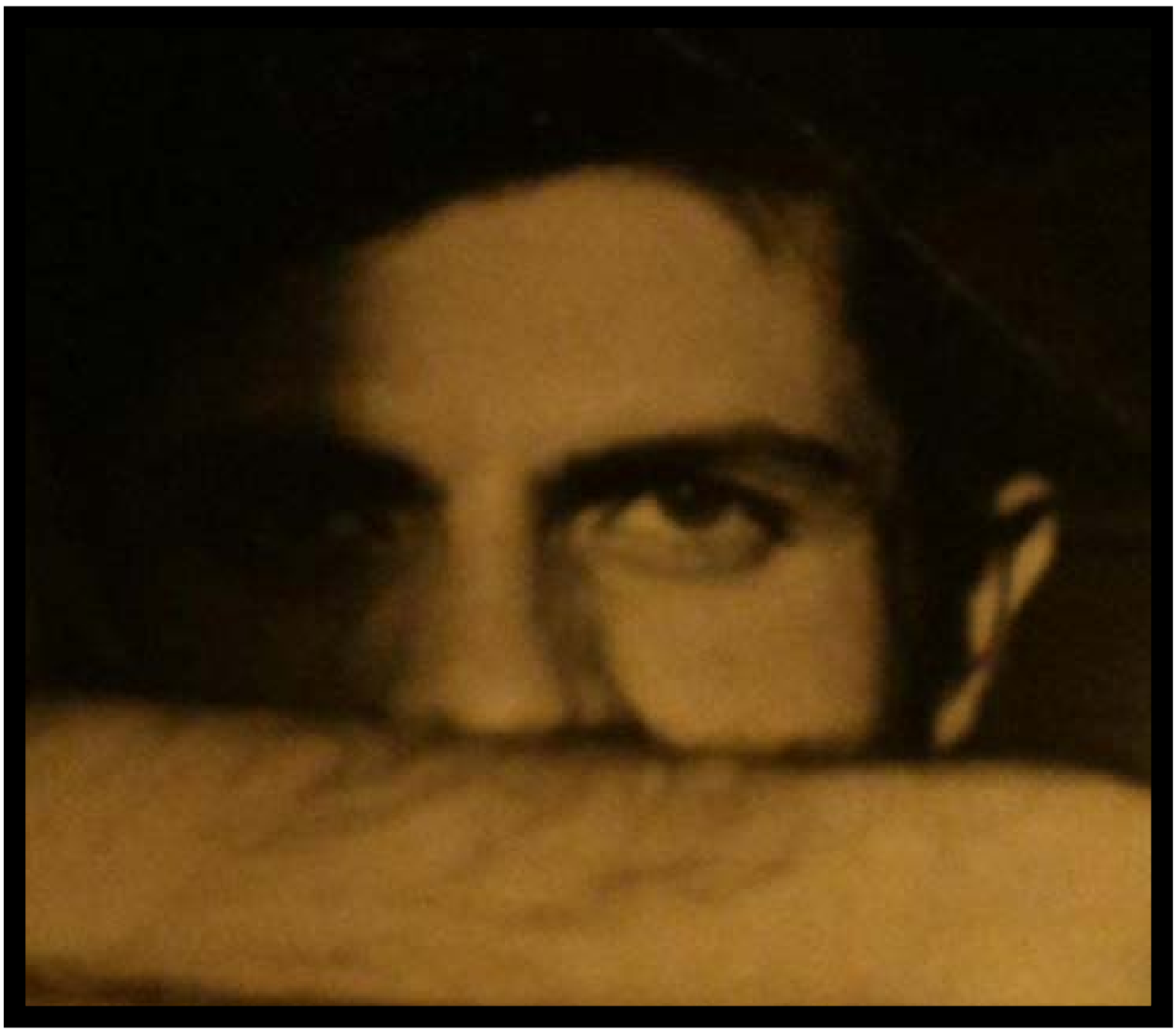

سعد الله ونوس... ذاكرة أقوى من الموت

يزن الحاج

في ذكراه الثالثة والعشرين، لا نعلم سرّ سعد الله ونّوس (27 آذار/ مارس 1941 ــ 15 أيار/ مايو 1997) الذي أفضى به إلى قلب كيمياء مسرحه كلّها خلال فترة صمته الموجزة الثانية (1990-1993) التي أنتج بعدها أعظم مسرحيّاته. وحتّى تلك المسرحيّات السّبع الأهم متباينة في ما بينها بدرجة مدهشة، ولكن لا بدّ من قاسم مشترك بينها حتماً. ستختلف الإجابات باختلاف القراءات والتأويلات، ولكن لعلّ أهمّ سبب في هذه المرحلة الأخيرة الفاتنة هو أنّ ونّوس سمح لذاته بالتسلّل في دفعات متزايدة. سمح لذاكرته أن تنحت مساراً لها داخل المسرحيّات. الجميل في الأمر هو أنّ ذات ونّوس كانت سرديّة لا مسرحيّة. تنامت جرعة السّرد بالتدريج لتحفر مساراً تجريبياً غاب عن أعماله الأولى، وأُلمح إليه إلماحاً طفيفاً في «الاغتصاب» (1989). تجريب فنيّ يتداخل فيه الدراميّ بالسرديّ بحيث لا تقتصر مهمّة السرد بكونه مجرّد «جوقة» للتعقيب والتفسير، بل دخل السرد إلى جسد المسرحيّة نفسها: صارت الشّخوص تُعبّر عن أنفسها أكثر ببوح مونولوغيّ يصل أحياناً إلى صفحتين أو ثلاث، وتشظّت الفصول والمشاهد التّقليديّة إلى منمنمات وتفاصيل بحيث بتنا أقرب إلى موزاييك أو مونتاج مسرحيّ لم يكن الشّكل القديم لمسرحيّاته الأولى يسمح به. اكتشفنا في التقاطاتٍ سريعةٍ ونّوس السّارد الذي كانت أعماله الأخيرة تعد بحضور أقوى للسرد، وهذا ما فعله حقاً حين فاجأنا بكتابه البديع «عن الذاكرة والموت» (1996)، وهو أحد أجمل الكتب السرديّة العربيّة.

كتاب «عن الذاكرة والموت» عصيّ على التصنيف كما هي حال مسرحيّاته الأخيرة وأكثر. يضع ونّوس على الغلاف تصنيفاً محايداً: «نصوص»، ثم نجد الكتاب مقسوماً إلى قسمين: «نصوص قديمة ومهملة» أقرب إلى القصص القصيرة من دون أن ينطبق عليها التّعريف بدقّة؛ و«نصوص جديدة» فيها نص واضح هو مسرحيّة «بلاد أضيق من الحب»، ونصان/متاهتان قريبان من السيرة الذاتيّة وبعيدان منها في آن: «ذاكرة النبوءات» أقرب إلى اليوميات، ولكنّ نص «رحلة في مجاهل موت عابر» لا مثيل له عربياً (ربّما نتذكّر هنا كتب حسين البرغوثي بوصفها أقرب مثال مشابه): يوميات، تأملات، پارورديا، نص ميثولوجيّ قصير، ونص دراميّ يكاد يكون مسرحيّة، أحلام، كوابيس، ونصوص قصيرة قريبة من جوّ القسم الأول من الكتاب، ولكنّها موحّدة في ثيمة واحدة: الذباب. يشير ونّوس هنا بين الهزل والجد إلى أنّه يودّ لو أدخلَ نصوص الذّباب في قسم (بعنوان «ذبابيّات») في المجلد النظريّ من أعماله الكاملة، ولكنّه فضّلَ تركها في كتابه السرديّ، وأدخلها ببراعة بحيث نجدها حلقةً من حلقات تأمّلاته الهذيانيّة بفعل آثار الجرعة الكيميائيّة التي كادت تودي به، ولكنّها أكثر بكثير من مجرّد هذيانات.

يتكون كرّاس «ذبابيّات» من نصين/ قصتين، تليه تداعيات ذاكرة وتأملات في عالم الذباب، ويختتمه بملحق عن علاقة الذباب بالإنسان، أو بالأحرى مظاهر علاقات الذباب بالإنسان وهي كثيرة حقاً. يلفتنا في النصوص الذبابيّة كلّها تكرار ونّوس لعبارة «لم أكن أعلم» التي توحي بندم لأنّه فوّت فرصة تأمّل هذا المخلوق العجيب، وتوحي من جهة أخرى بخيبته من مدى ضحالة معرفة الإنسان وضآلة وجوده. يروي ونّوس في نص «الذبابة الجائعة» قصة يوم واحد من حياة ذبابة، كأنّه يكتب پارورديا للأعمال المسرحيّة الملتزمة بضوابط الوحدات الأرسطويّة الثلاث. يوم واحد لا يعني الكثير في حياة البشر إلّا لو رواها سوفوكليس أو جويس، ولكنّه عالَمٌ بأكمله بالنّسبة إلى ذبابة وحيدة جائعة تخوض مغامرتها الوجوديّة: «كانت الغرفة واسعة كالعالم... كان كل شيء عجيباً ومدهشاً في الوقت نفسه. وإلى حزنها انضافت رعشة الرعب». رعب بسبب الإنسان طبعاً الذي لا يترك لها فرصةً للتأمل ويسحقها لتسقط على الأرض وينتهي وجودها من دون أن تكون قد عرفت شيئاً. هذا الجوّ الوجوديّ ليس بعيداً من جوّ مسرحيّاته الأولى، لكنّ النص الثاني «بعد ظهر دمشقيّ» يبدو بمثابة صلة وصل عجيبة بين العالم الوجوديّ القديم وعالم المسرحيّات الجديدة. الفارق هو أنّنا نتابع بعيني ذبابة تراقب مضاجعة رتيبة في ظهيرة رتيبة في مدينة رتيبة: «تطير الذبابة، وتحط على المصباح الكهربائيّ المتدلّي من السقف. تنظر من أعلى. ترتفع إليتا الرجل. تهويان. تشعر الذبابة بالتقزّز والحزن». تنتهي القصة فنشعر بخواء هائل، يمتزج بأسى حين يواصل ونّوس تأملاته في الفروق بين المضاجعة (التسافد؟) البشريّة وبين العمليّة الجنسيّة لدى الذّباب التي يمكن لعبارة «ممارسة الحب» الباهتة - التي نتحايل بها على الرقابة كيلا نسمّي الجنس جنساً ـ أن تنطبق على الذّباب ولكن ببعد جماليّ رهيف يقصد الحب في ذاته، لا بكونه مجازاً. يفاجئنا ونّوس باستخدام مفردات صوفيّة، كأنّ الحب والجنس عند الذباب وَجْدٌ، لا محض ممارسة ميكانيكيّة: «حين يلتحم ذكر الذباب بأنثاه، يبدو كأنّهما دخلا حالة من الوجد الغامض، وقررا ألّا ينفصلا ما دامت فيهما قوة أو حياة... كان ينبغي أن أكبر، وأن أفشل في الحب مرات عديدة، كي أكتشف أنّ الإنسان يفتقر كثيراً إلى الحساسيّة والجمال اللذين يتحابّ بهما الذّباب. وفي لحظات... كثيراً ما حسدتُ الذّباب على تلك القدرة على الطيران بأجنحة أربعة، وبشهوة تتدفّق في العروق متجدّدة ومديدة».

يشير ونّوس (في حواره مع ماري إلياس في مجلة «الكرمل» عام 1996) إلى أنّ هوسه بالذّباب قديم منذ أيام يفاعته في قريته حيث كان الذبابُ «الحاضرَ/ الموجودَ الذي لا نعي وجوده إلا كعامل إزعاج، لكنه في الحقيقة وجود يوازي وجودنا بشكل كامل، فلماذا لا نتبنى وجهة نظره من وقت لآخر؟». وبذا، لا تقتصر تأمّلات ونّوس على الجانب الجنسيّ من جوانب حياة الذباب، بل يواصل تداعياته ليروي لنا كيف يشهد الذباب انكسارات الإنسان، وكيف تتداخل حياته بحياة البشر في تفاصيلها كلّها. ويتكشّف له ولنا أنّنا ضئيلون حتّى بالمقارنة مع كائن نراه مقرفاً زائداً عن الحاجة. ولكنّ قَلْب وجهات النّظر سيعني الكثير/ على الأخص حين يختم ونّوس «ذبابيّاته» بحادثة جعلته يربط الذّباب بالسياسة على الدوام، حين رأى لافتة كرتونيّة في كشك مخابرات على الحدود السوريّة - اللبنانيّة كُتب عليها: «الفم المغلق لا يدخله الذباب»، ويُجْمِل الحادثة في عبارة واحدة: «وبهذا المعنى، فإنّ الصمت يجنّبنا الذّباب، ويجنّبنا أيضاً المتاعب السياسيّة». ولكنّ ونّوس لم يصمت حتّى في فترات صمته، بل واصل إبداعه مسرحاً وسرداً في سباق مع العمر القصير، ونوَّع بين صراخ السبعينيّات وهدوء الثمانينيّات وهمس التسعينيّات، ليبرهن أخيراً، في المسرحيّات وفي كتابه السرديّ على الأخص، على أنّ الذاكرة أقوى من الموت.

ملف

من المعرّي والغزالي إلى أوكتافيو باث... في أحوال العزلة و«حظر التجوّل»

الكائن الإنساني وحيد، يحيط به وحيدون

(ميلان كونديرا- حفلة التفاهة)

كانت عبارة «حظر تجوّل» تخص بيانات الانقلابات العسكرية في المقام الأول، قبل أن تفرضها معظم السلطات في أنحاء العالم لمواجهة الوباء اليوم. فيروس غامض يحمل اسماً أنثويا ناعما: «كورونا»، هزّ أركان الكرة الأرضية، وأثار الرعب والهلع بين البشر، مثل مشهد مقتطع من جحيم القرون الوسطى، عابراً حدود القارات، وأختام الحدود. شوارع خالية ومحال مغلقة، وكائنات هائمة، كما لو أن زلزالاً مدمّراً أصاب المدن. تعليمات صارمة في مواجهة هذا الفيروس، إلى درجة إعلان حظر التجوّل بين أعضاء الجسد الواحد. إبعاد اليد عن الفم والأنف والعينين. اليد التي كانت تعانق الآخر، باتت مثل خنجرٍ مسموم. اليد الحذرة من مصافحة يد الآخر. احذر يد الرغبة في الملامسات الحميمة، وانتبه إلى جرس إنذار الندم المتأخر. النظرة المرتابة والتحديقة المعادية لمن يعبر إلى جانبك خشية أن يكون مُصاباً بهذا الوباء اللعين. وجوه منهوبة على مسافة متر واحد من رعب مركز «الحجر الصحي»، أو توقيت ساعة الهلاك. نداء المؤذن للصلوات الخمس في مسجد فارغ. عزلة قسرية في فضاء ضيّق ومغلق، «حياة تتارجح كالبندول بين الألم والملل»، وفقاً لما يقوله الفيلسوف المتشائم شوبنهاور. غرق في المُطهرات. خوف من تلوّث مقابض الأبواب، والمفاتيح، والريموت كونترول، وماوس الكمبيوتر، وأغلفة الكتب، والأكياس البلاستيك، وأيدي الباعة وهم يناولونك بقايا النقود الورقية القذرة. وفي المقابل، ستنتعش فتاوى الأدمغة المثقلة بخرافة الغيبيات، وثقافة الرغوة. وهستيريا النظافة. ثمّ انتبه إلى مسافة الأمان مع الآخر، كما لو أنك سيارة فاخرة عند شارة مرور، كيلا تتحوّل إلى خردة بشرية في لحظات. يا لهشاشة الكائن الخائف: أن تعقّم مشاعرك من فيروس العاطفة، وأن تعيش الذعر على أشدّه. كلّ هذا العنف المتناوب يتدفق بجرعات بصرية عالية، ليلاً نهاراً، وأنت مثل فأر تجارب، تنصت مرغماً إلى خبير الأمراض الجرثومية، ثم تنقلب عليه لمصلحة خبير آخر يمنحك جرعة أمل بتفاهة هذا الفيروس أو عبوره الخاطف والمؤقت، والانتصار عليه بالأدعية، فيما يؤكد ثالث بأنها حرب مختبرات جرثومية، وصراع إمبراطوريات، ودرجة إضافية في توحّش النيوليبرالية. ستهزّ رأسك من دون يقين بانتهاء حقبة، وبداية حقبة أخرى تطيح وتقوّض ما قبلها في تشريح معنى العالم وخرائطه القديمة، وطراز حروبه المقبلة، واندحار مفهوم الثقافة المعولمة، وهشاشة الشعارات، ورخاوة أيقونات الأمس. تحلم لبرهة بألّا حروب مدمّرة بعد اليوم. سيُطوى معها أرشيف أمراض السل والملاريا والجدري والكوليرا وصولاً إلى الكورونا. ستنهار منظومة قيم متوحشة، وستبزغ شمس الإنسانية فوق الكوكب، من دون أن تتفوّق شجرة نسب على أخرى. تحلم بأن ما يحدث في مطحنة الميديا مجرد حفلة تنكرية شكسبيرية، وأكذوبة إعلامية لتجديد هواء أسرّة المستشفيات من رائحة أنفاس العجائز الذين أرهقوا ميزانيات الرعاية الصحيّة في البلدان المتقدّمة، ولعبة كسر ركب بين البورصات العالمية. يحتاج هذا الكوكب المحزون إذاً، إلى استراحة محارب، وإعادة فحص للعجلات وتزييتها على نحو آخر كي لا تبلغ حافة الهاوية، والانتباه بجديّة إلى احتجاجات الطبيعة وانقلابها المسلّح ضد العار الذي لحق بها من انتهاكات نفايات المصانع وأدخنة المعامل، ودهاليز الصفقات المريبة في مكاتب الشركات العملاقة، وثقافة الوجبات الجاهزة، وفيروس التوحّش المذهبي، والفردانية، والنهب، وحروب المياه، وتدمير الغابات، والشعبوية، وأنظمة التفاهة، والجغرافيا السائلة، ونهاية التاريخ، وعولمة الحواس. هكذا سنعيش مرغمين عزلتنا القسريّة، في الوقت المستقطع من الكارثة، أو علينا «اختراع العزلة» وفقاً لبول أوستر «غُرفنا هي السجون الوحيدة التي ندخلها طوعا لنجد الحريّة»، يقول. سيقودنا بول أوستر من «عزلة الأب» إلى مراجعة عزلة الآخرين بطبقاتها المتعدّدة، ربما لنكتشف ما يشبه عزلتنا، وترميمها بمفردات وعناصر وأوهام، أكثر جاذبية وطمأنينة، وفي الوقت ذاته كي نصرف ساعات «حظر التجوّل» بضجر أقلّ. ولكن هل سنصحو على نصّ آخر، نص الأقول، نصّ التفكّك، يطوي فهرس الأمس، في الكتابة، و«مهنة العيش؟»، فحسب ما يقول محمود درويش «العزلة مصفاة لا مرآة». هنا بروفة أولية لفضائل العزلة وارتدادات حظر التجوّل:

تقديم وتحرير **خليل صويلح**

رهين المحبسين

سنرتطم أولاً، بأكثر أنواع العزلة ثراءً، نقصد عزلة أبي العلاء المعرّي (973- 1057). هذا الفيلسوف والشاعر الذي ابتلي بالعمى، إثر إصابته بمرض الجدري، وهو في الرابعة من عمره، فاجج موقد البصيرة كحاسة بديلة في تفكيك الغاز الكون. ذلك أن «رهين المحبسين» عاش في عزلة صارمة وخشنة ونباتية، امتدت نحو خمسين عاماً، مقلّباً خلالها أسباب القلق والريبة في مواجهة الغيبيات، بأفكار تشاؤمية وضعته في مهب الإلحاد والزندقة، مؤكّداً أن «لا إمام سوى العقل». أمر أوقعه في شباك فتاوى تكفيرية، زادت من عزلته الشخصية من جهة، والتحليق بأفكاره الجريئة من جهة ثانية، كما في «رسالة الغفران» على نحو خاص. يقول في توصيف طبقات الكارثة الإنسانية: «غيّرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح/ وأودي ربع أهلها فبانوا وغودر في الثرى الوجه المليح». بروحه السوداوية، وزهده بلذة العيش، حشر المعرّي شعراء في النار، وآخرين في الجنّة، تبعاً لرؤيته الذاتية لسلوكيات الشعراء ومواقفهم. في واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم. روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال خذوا بحظكم من العزلة وقال ابن سيرين العزلة عبادة. وقال وهيب ابن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس، وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار ما أصبرك على الوحدة وقد كان لزم البيت، فقال كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا، كنت أجالس الناس ولا أكلمهم، وقال سفيان الثوري هذا وقت السكوت وملازمة البيوت». ويضيف: «لستُ أخلو لغفلةٍ وسكون/ وفرار من الورى وارتياح/ إنما خلوتي لفكرٍ وذكرٍ/ فهي زادي وعدّتي لكفاحي».

> **برّز البير قصيري وحدته قائلاً: «هذا العالم الذي نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأنذال التي لطّخت الأرض»**

مديح العزلة، يقول: «فما للفتى إلا انفراد ووحدة، إذا هو لم يرزق بلوغ المارب». عزلة طويلة، أثمرت نصّاً مضاداً ومحرّماً. ذلك أن الكتابة عنده، وفقاً لقراءة عبد الفتاح كيليطو في كتابه «المعرّي أو متاهات القول»، تشكّل «صراعاً عنيفاً مع ما لا تجوز كتابته، وما لا يجوز قوله، ومجهوداً شاقّاً متواصلاً لصدّ ما يتعارض مع الصواب، وإقامة سدّ منيع دونه».

عراء الذات

خاض أبو حامد الغزالي (1085- 1111) تجربة فريدة في العزلة. أدار ظهره للرحام والسجالات والفتاوى، متّجهاً نحو الصحراء. هناك تحت قبة السماء الصافية، وغموض الرمل وهبوب الريح، اكتشف بهجة العزلة، وعراء الذات. عشر سنوات كاملة من التأمل والتفكير والتدوين، أنجز خلالها كتابه الإشكالي «إحياء علوم الدين»، وقد خصّص الكتاب السادس لآداب العزلة، ومما جاء فيه، «فإن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل مجابهة ميتافيزيقية في تشريح الذات والوجود. يقول مفسّراً عزلته: «عزلتي ليست بحثاً عن سعادة لا أملك روحاً لتحقيقها، ولا عن طمأنينة لا يمتلكها أحد إلا عندما لا يفقدها أبداً، وإنما عن حلم، عن انطفاء، عن تنازل صغير». عزلة ستتكشف بعد 30 عاماً على وفاته عن 27423 نصّاً ووثيقة، كان قد نشرها بأسماء سريّة لطالما توارى وراءها بمهارة.

كافكا: عزلة اليانس

لا مسافة مرئية بين فرانز كافكا (1883- 1924) ونصوصه في تدشين عزلة نموذجية. فالكائن بالنسبة إليه، ليس أكثر من حشرة ضخمة تستيقظ على الرعب من الموجودات، وتفاهة العالم، وتعرية القهر، باقصى حالات اليأس والسوداوية والاغتراب، ذاهباً إلى نهايات مفزعة لشخصيات رواياته، قبل أن يوصي صديقه ماكس برود بحرق آثاره الأدبية. إلّا أن وصيته لم تُنفّذ. عزلة كابوسية لمريض السل، أتت كمحصلة لعلاقته المتوترة مع أب قاس، ومغامرات عاطفية لم تكتمل، منسحباً إلى ذاته القلقة والمرتابة في مواجهة أحكام «مستعمرة العقاب». في إحدى رسائله إلى حبيبته فيليس باور، يحذّرها قائلاً: «ستكونين، بعدئذ، في عزلة رهيبة يا فليس، سوف لن تفهمي كم أحبّك، وسيكون صعباً عليّ أن أظهر لك كم أحبّك. ورغم ذلك، ربما، سأكون لك بشكل خاص جداً، اليوم ودائماً. ما رأيك إذاً.. في الرجل الذي ينام حتى 7 أو 8 صباحاً، يأكل شيئاً ما بسرعة، يتنزّه ساعة ثم يبدأ بالكتابة حتى 1 أو 2 ليلاً. هل ستتحمّلين كل هذا؟ من الرجل الذي سوف لن تعرفي عنه سوى أنه يجلس في غرفته ويكتب؟ ويقضي الخريف والشتاء على هذا المنوال؟ هل هذه حياة ممكنة؟». في لحظة تشاؤمية أخرى، سيقول: «أرغب في عزلة تخلو من التفكير، أكون فيها وجهاً لوجه مع نفسي».

جورج توكر ــ «مشهد بوجوه» (تمبرا على خشب مضغوط ــ 1965)

فريدا كالو: سرير الكآبة

لولا عزلتها القسرية في أحد مستشفيات المكسيك، إثر حادثة سير، أدت إلى تحطّم عمودها الفقري، والخضوع إلى نحو 32 عملية جراحية، لما حصلنا على رسائل فريدا كالو (1907- 1954). نصوص ورسومات مدهشة عن عزلة الذات، كما لو أنها أوكسجين يكسر صمت الجدران الضيّقة، ويوسّع شرايين الوحدة. لكن الرسّامة المكسيكية المتمرّدة، لم تحتمل السأم طويلاً، تحت وطأة عذاب الجسد المشدود إلى سرير الكآبة «أهذا السريرُ هو المكان الذي ينبغي أن أكون فيه بعد أن كنتُ جوابةَ الآفاق أطوف الشوارع والطُرق طوال حياتي؟»، تتساءل. القديسة الشهوانية أو القنبلة المتشبثة بأعمدة اللغة، وفقاً لوصف أندريه بروتون لها، قاومت العزلة بشراسة رسالة وراء أخرى، إلى أصدقاء وعشّاق بوصفها إكسير النجاة من موتٍ مؤكّد. تكتب في إحدى رسائلها إلى اليخاندرو غوميز أرياس «لو تعرف عمقَ الشقاء الذي يجلبه اكتساب المعرفة على نحو مفاجئ: مثل الصاعقة التي تنير الأرضَ! أعيش الآن على كوكب مؤلم، شفافة كالصقيع، كما لو أنني تعلمت كلّ شيء دفعة واحدة في غضون ثوانٍ. صديقاتي ورفيقاتي غدون نسوةً على مهل. أما أنا فقد كبُرتُ في لحظاتٍ معدودة، وبات كلّ شيءٍ مضجراً وتافهاً. أدرك الآن عدميةَ الوجود، فلو أن هناك شيئاً ما، لتبصّرته».

دعد حدّاد: عواء الوحدة

لم ننصت حينها إلى عواء الوحدة الذي كان ينبعث من غرفتها الرطبة في مستودع للكتب. ماتت دعد حدّاد (1937- 1991) وحيدة ومنبوذة ومشّردة مثل اتهام علني للجموع، ذلك أن النخب لفظتها خارجاً، غير عابئة بهذه المرأة البدينة بقبعة من القش، وعصا الجنرال، وهي تكيل الشتائم لأصدقاء الأمس. كانت تكتب عزلتها على بعد خطوات من الموت، ثم تتوسّد معطفها وتنام، مثل طائر جريح فقد عشّه إلى الأبد، مثل زهرة بريّة لا أحد يعلم لغز الرائحة السريّة لعطرها وأشواكها. شاعرة عزلاء مدجّجة بنصوص متوحشة تتناسل من أحشائها بأقصى حالات الحزن والحب والوحدة «لماذا تعصف بي الريح وحدي؟». تتساءل بسخط، ثم «أود أن أطير، أن تكون مهنتي الخطر». ماتت دعد حداد، بعدما أهدت المعجم الشعري أكثر القصائد بلاغةً «لا أحد يستطيع أن يسكن قبري/ أنا من تحمل الزهور إلى قبرها وتبكي من شدة الشعر/ أغمضوا أعينكم/ سامرُّ وحيدةٌ كرمح»، و«استيقظوا الآن، أنا وحيدةٌ، ها هي أجراسي وتوابيتي».

متاهة أوكتافيو باث

لا نحتاج إلى اختراع العالم، إنما لصوفه على نحو آخر. هذا ما يخلص إليه الشاعر المكسيكي أوكتافيو باث (1914- 1998) في كتابه «متاهة العزلة»، مؤكداً أن الحضارات «ليست قلاعاً، بل هي طرق متقاطعة». وتالياً ينفي ثقل ثقافة الغزو في تأثيرها على الهويات الأساسية، شرقاً وغرباً، بالاتكاء إلى حركة مزدوجة: العزلة والانقطاع، ثم الدخول في الثقافة الكونية، في عملية تبادلية. ذلك أن المشاركة والعزلة والرغبة في الحب تتعارض وتتكامل. هنا مقاطع من المتاهة:

- نحن محكومون بالعيش في عزلة، لكننا محكومون أيضاً بتجاوز عزلتنا واستعادة الصلات، التي كانت تربطنا بالحياة في ماضٍ فردوسي. كل جهودنا تسعى إلى محو العزلة. هكذا يملك الإحساس بالعزلة دلالة مزدوجة: فمن جهة يدل على الوعي بالذات، ويدل من جهة أخرى على الرغبة في الخروج من الذات. إن العزلة، وهي شرط حياتنا، تبدو لنا كامتحان وتطهر، وفي نهايتها يختفي القلق والتيه.

- العزلة عقوبة، أي إدانة وتطهّر. إنها عقوبة، لكنها أيضاً وعد بنهاية منفانا. وكل حياة هي حياة مسكونة بهذه الجدلية.

- الميلاد والموت تجربتان للعزلة: نولد في عزلة، ونموت في عزلة. لا شيء أكثر خطورة من هذا الغوص الأول في العزلة، الذي هو الميلاد، إلّا هذا السقوط الآخر في المجهول، الذي هو الموت. إن الإحساس بالعزلة، الحنين إلى جسد انتزعنا منه، هو حنين إلى المكان. وهذا المكان، حسب تصوّر قديم يوجد عند كل الشعوب تقريباً، ليس إلّا مركز العالم، سرّة الكون.

- إن كل مجتمع يحتضر، أو في طور العقم، ملزم بإنقاذ ذاته بخلقه لأسطورة الخلاص، والتي هي أيضاً أسطورة الخصب والخلق. العزلة والخطيئة تتحولان إلى مشاركة وخصب. إن المجتمع الذي نعيش فيه أنجب أيضاً أسطورته. فعقم العالم البورجوازي يفضي إلى الانتحار أو إلى شكل جديد للمشاركة الخلاقة. تلك هي «ثيمة زمننا»، مادة أحلامنا ومعنى أفعالنا

> **ماتت دعد حدّاد وحيدة ومنبوذة ومشّردة مثل اتهام علني للجموع**

حظر تجوّل للكتب

على عكس حظر التجوّل الذي تفرضه حكومات الانقلابات العسكرية تبعاً لنجاح أو فشل الانقلاب، وكذلك ما تدعو إليه السلطات في أوقات الكوارث الطبيعية، وهو إجراء مؤقت غالباً، فإن محاكم التفتيش القديمة والجديدة فرضت حظر تجوّل على بعض الكتب لفترات طويلة إلى درجة المطالبة بإبادة بعضها، كما لو أنها وباء فتّاك. هكذا منع ستالين رواية جورج أورويل «1984» من الدخول إلى الاتحاد السوفياتي (1950) لإدراكه بأن الرواية تسخر منه شخصياً. وستنال رواية «دكتور جيفاغو» لبوريس باسترناك قراراً مشابهاً بالحظر حتى عام 1988 بذريعة انتقادها للبلاشفة. وستمنع الهند رواية «إلـه الأشياء الصغيرة» لأورنداتي روي بسبب علاقة محرّمة بين امرأة مسيحية وخادم هندوسي. كما منعت غواتيمالا تداول رواية «السيد الرئيس» لميغل انخل استورياس لفضحها آليات الاستبداد في البلاد. وكانت أميركا وبريطانيا قد حظرتا رواية «عشيق الليدي تشاترلي» للروائي البريطاني دهـ. لورانس حتى أواخر الخمسينيات بتهمة الفحش. الأمر نفسه بخصوص «عوليس» لجيمس جويس التي حُظرت في بريطانيا الثلاثينيات بسبب محتواها الإباحي. من جهتها، لم تحتمل فرنسا التنوير عبور رواية «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف، ولم يرفع الحظر عنها حتى عام 1964 نظراً لإباحيتها أيضاً. وستشمل القائمة أميركياً، «مدار السرطان» لهنري ميللر حتى أوائل الستينيات، أما تسونامي «آيات شيطانية» لسلمان رشدي، فقد عصف بالرواية وصاحبها لتهجمها على الإسلام، فحظرت من التجوّل في إيران وباكستان والهند والكويت ومصر. وكذلك «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، و«وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر في مصر. هناك أيضاً كتاب «أليس في بلاد العجائب» للويس كارول الذي مُنع في مقاطعة هونان الصينية عام 1931، قبل أن يصبح لاحقاً في طليعة حكايات الأطفال في العالم. لاحقاً، سيفضح الروائي الصيني داي سيجي في روايته «بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة» أكثر أنواع حظر التجوّل هولاً وعسفاً، حين منعت السلطات الصينية أثناء الثورة الثقافية في ستينيات القرن الماضي، تداول وقراءة أي كتاب لا يمجّد الشيوعية الماوية، تحت طائلة العقوبة المشدّدة، حتى لو كان هذا الكتاب رواية لبلزاك أو لمارسيل بروست أو فوكنر!

نص

فرسان القيامة الأربعة من اللغة السردية إلى الصورة الساردة

آيار محمد علي *

منذ أن انبثّت في الأرض، وانتشرت من سرديـة صنـدوق بانـدورا الميثولوجية كافة الشرور البشرية، ما انفكّت جملة المخاوف من الأمراض والحروب والفقر والأوبئة والموت، تشكّل جزءاً مهماً من أعمال جماليّة متعددة، متعالقة مع السياق الزمكاني في الثقافات المختلفة. ولعلّ أفضل تلخيص لجملة هذا الارتياع، نجده في سلسلة تصاوير كتاب «سفر الرؤيا»، الذي ظهرت طبعته الأولى باللاتينية والألمانية عام 1498؛ وفيه أنجز الفنان الألماني النهضوي البرشت دورر (1471-1528) رواشمَ، أو تصاويرَ بتقنية الخَشيب (طباعة النقوش على الخشب)، محاكياً بالرسم سِفر رؤيا القديس يوحنا في «العهد الجديد». تعكس الرسوم مجتمعة دلائل نضج فني مدهش، وقلق جمالي ومعرفي مفرد. وفيها يُعيد دورر لسفر الرؤيا جوهره الأصلي، بمعنى أنه يعيد إنتاج النص الذي يتميز بالبعد البصري، محوّلاً إياه إلى سلسلة من الصور الساردة. تستفيد سلسلة الرسوم بمجملها من تقنية التجاور القروسطيّة Juxtaposition، أي أن كل رسم يجاور الآخر ويستقل عنه ذاتياً، في الصفحات المتتالية، بيد أنه متعالق مع الكلّ من خلال درامية الحدث والمناخ العام.

ومن بين هذه المجموعة، تبرز اللوحة التي تحمل عنوان «فرسان القيامة الأربعة» (1498)، التي تُعتبر واحدة من أهم الرواشم في تاريخ الفن على الإطلاق. وفيها محاكاة تصويرية لتجلي الفرسان المذكورين في رؤيا يوحنا (الإصحاح السادس: 1-8)؛ فبعدما فتح الخمل (رمزية الرب في المسيحيّة) في النص الرؤيوي، الأختام الأربعة على التوالي، يُسمع جَرس رعدي (تورية صوت الوحي)، وتتكشف علامات الساعة القيامية تباعاً، بانطلاق أربعة فرسان مزوّدين بنظام علاماتهم المميزة، وهم يمتطون أربعة جياد مختلفة الألوان. ورغم أن تلاوين الأحصنة تغيب عن الرسم لأنه بالأبيض والأسود، إلّا أن الرمزية الدلاليّة لكل مكوّن تصويري تجعل اللون حاضراً في الغياب في بصيرة المتلقي، بل بقوة في مخيلة المشاهد العارف بالميراث القيامي.

البرشت دورر: فرسان القيامة الأربعة (حفر - 1497-1498)

حسناً، عندما فتح الرب الأختام الأربعة، ينبلج الفرسان الأربعة، منقشعين من بين الغيوم في الرسم على نحو واقعي: الفارس الأول حامل القوس، يعتمر تاج النصر (ويمتطي جواداً أبيض)، ويرمز إلى الغزو وأهوال الاجتياح؛ الفارس الثاني شاهر السيف (يركب حصاناً أحمر)، ويرمز للحرب الأهليّة وما تخلّفه من دمار؛ والفارس الثالث رافع الميزان (يمتطي جواداً أسود)، ويرمز إلى المجاعة وضراوة الإفقار والأزمة الاقتصادية؛ ثم يُرى الفارس الرابع، واسمه «الموت»، ويتبدّى هرماً نحيلاً، ويمتطي حصاناً هزيلاً (شاحب اللون)، يستلّ منجله الشوكي، ويتميز بحصد أرواح البشر بالأوبئة والقتل والوحوش، ويرافقه الجحيم (هادس إله العالم السفلي) بهيئة كائن بهيمي فاغر الشدق على وشك التهام الجميع وازدرادهم.

يقود التمعّن في ظاهر اللوحة إلى تمييز ثلاثة أبعاد، تتوزع تدريجاً مقتسمةً مساحة الرسم: البعد العلوي يشير إلى الفضاء السماوي، وفيه ملاك (الوحي أو ناقل كلمة الرب)، يومئ بإصبعين اثنين من يده اليمنى، كإشارة مالوفة في اللغة الأيقونية، إلى النبوءة والتبليغ عن شيء مستتر؛ ثم البعد الأوسط، يدلّ على البرزخ الذي يتمركز فيه الفرسان الأربعة؛ يلي ذلك الفضاء الأرضي الأدنى، ويتضمّن شخوصاً دنيويّة متنوعة، بينهم رجل دين يعتمر قلنسوة فاخرة (يوعز إلى المسيح الدجال، أو مجاز الدجل الديني) ويتموضع في الجهة الأقرب إلى فوهة الجحيم في الرسم.

عمد دورر في تصويره هذا إلى توظيف تقني مميز ومبكر في تاريخ الفن، من خلال اعتماده المنظور القطري، وكان لهذا الاستخدام أثره في ما سيعرف تاريخياً بـ«الرسام-السينوغراف»، وساهمت هذه التقنية في إضفاء حسّ الواقعيّة والحركة على الصورة، ما أدى إلى تكثيف دراميّة الحدث إلى حدودها القصوى.

فنياً، يمكن إدراج اللوحة ضمن الإبداع الفني الذي يُطلق عليه تجاوزاً «سوريالية ما قبل السوريالية»، لطالما أنها رسم (وهم) يتغيا محاكاة جوهر الرؤيا، أو الحلم، أو الخيال؛ ويتبدى كواقع حلمي أو فنتازيا ميتافيزيقية تحاكي الواقع. في كلّ الأحوال، تعبّر اللوحة بامتياز عن لحظتها التاريخيّة وما يفيض عنها؛ ذلك أنها تعكس القلق الديني، والبلبلة والتهديد بانقسام المسيحيّة في زمنها، فضلاً عن الفساد الروحي والمادي الذي كانت تعيشه أوروبا؛ من دون أن يفوتها كفعل إبداعي، له موقف نقدي من العالم، أن تكون قادرة على إنتاج القول باستمرار على اختلاف الزمان والمكان، لذلك فهي تخاطب لحظتها ولحظتنا الراهنة. أخيراً لا بدّ من القول بأن الحديث عن فرسان سفر الرؤيا الأربعة لدورر، يتبدى كمدخل يمكن أن نتلمس عبره العلاقة الوطيدة بين النص السردي اللغوي (سفر الرؤيا) وبين التصوير التشكيلي، وكيفية التعبير عن المخاوف البشرية مجتمعة في رسم واحد، قبل أن تتفرق وتتشعب كمواضيع فنيّة مستقلة في تاريخ الفن، ولذلك حديث آخر.

* إشبيلية/سوريا

سرد

بيدرو بارامو، نسخة معاصرة، مُحَيَّنَة، وذاتية جداً وفق الإيقاع العددي اثني عشر (*)

أنيس الرافعي

[إلى محمد الشركي، نفقنا الدائم نحو الجمال والإنسان]

صعدت على عجل من الباب الأمامي لحافلة النقل العمومي، ثم انتبذت مقعداً هو الوحيد الشاغر في الصف الأخير، وسط ناس صامتين، شاحبين، وبالغي الرثاثة والبؤس والحزن مثلما لو أن نوبة ركود آزلي وكآبة طافحة انتابتهم بغتة. بعضهم كان يضع على نحو غير مفهوم قفازات مطاطية ممزّقة وكمامات طبية قديمة ومتآكلة، وبعضهم الآخر يحمل علب أدوية معروفة لعلاج بلاء الملاريا والتهاب المفاصل المزمن، وكذا كانوا يشدون ما بين أفخاذهم أجهزة تنفس صغيرة صدئة، يبدو جلياً أنها لا تعمل البتة أو فارغة من الأوكسجين. لكن قبضاتهم وأطرافهم الهزيلة كانت تمسك بها بقوة وإصرار بضاهيان الكنز النفيس الذي تخشى خسارته، بل أحسست أنهم يمكنهم ارتكاب جريمة قتل ببساطة مثل قول السلام عليكم أو شرب جرعة ماء من أجل المحافظة عليها. خاضت الحافلة الخربة العتيقة البطيئة كسلحفاة عرجاء غمار الإسفلت دون انقطاع حتى دون وجود أيّ لافتة اتجاه أو علامة تشوير، شقت عباب صحراء قُدَّتْ من ملح تحلّق فوقها غربان سود متوعرة تهدد بالهجوم، وفتكت بمحطات مجهولة مقفرة من البشر والعربات لا عدّ لها كأنها ماضية إلى مكان ما أبعد من أي مكان، إلى مكان تنعدم فيه الحدود والتخوم والحواف بين العوالم. غير أن محصّل التذاكر لم يبرغ له أثر يذكر، كما أن لا أحد من الركاب أبدى رغبته الصريحة في النزول.

استغربت ملياً الأمر، فكان من المنطقي أن تفتر قدماي عن خطوات سريعة لتردم المسافة العالقة بيني وبين السائق وهذا الاستفسار الساذج:

— من فضلك لو سمحت سيدي، إلى أين تتجه هذه الحافلة؟

رد السائق بلهجة باردة و لامبالية:

— إذا سارت الأمور على ما يرام، سنصل إلى كومالا، بعد اثنتي عشرة ساعة بالضبط، ثم أردف قائلاً بنبرة حازمة:

— رجاء، ارجع إلى مكانك و تصرف كما يَجْدُرُ بمثلك!

وما إن عدت إلى كنف موضعي، وصوابي يكاد يطير طيران محرك الحافلة المهتاج الذي أشهر الآن سرعته القصوى، حتى وجدت في مستقر جلوسي كتاباً ضخماً مسفراً بجلد برتقالي اللون، من دون عنوان أو صاحب. فتحته بدهشة محترزة، ثم انبريت في تتبع انسياب السطور والصور والتواريخ والخوارزميات. قرأت عن عبقرية دائرة الأبراج البابلية المسماة بالزُّوْدِياك، عن إعجاز ألواح ملحمة جِلْجَامِشْ المسمارية، عن الانبعاث الدائم للمصريين الأصلاب عقب السنوات الرزيئة تحت وطأة الفيضان وبعد إلحاق أيام النسيء الخمسة، عن فطنة فيثاغورس المكتشف للإيقاع الخفي للحركة الدورية للأرض والكواكب، عن سقوط آلهة جبل الأولمب الجبابرة البغاة، عن تفرق شمل التِّيتَانْ أولاد زِيُوسْ الممثلين للعنف في الطبيعة، عن أعمال هرقل الجسورة لنيل شرف الخلود، عن عقلانية أفلاطون الذي أحلّ الأرقام مكان الأفكار المجردة لتفسير شكل الكون ووضع القوانين، عن عدالة آلهة الرومان وتشريعاتهم الديمقراطية المحفورة على طاولة دائرية من برونز، عن إنيادة فرجيل وقدرة بطلها إنْيَاسْ على إنهاض أمة وتأسيس وطن جديد بعد سقوط طروادة؛ عن الفضائل التي جلبها إله المانويين بعد أوبته من غيابه في السماء إلى الأرض؛ عن الرب المسموح في الهند واقتسامه عملية الخلق مع مساعديه كالرغيف. عن شموس وأمطار المُهَابَارْتَا التي

تذكر الإنسان بضآلة قدره أمام مقصلة الزوال. عن سحر شهر الفراغ والانبجاس في التحقيب الصيني. عن بهجة الساعات الأولى في النهار الأول من حياة آدم عند العبرانيين. عن أعياد ومراسيم التدبير الخلاصي عند المسيحيين. عن عظمة وكرم آباء العرب المستعربة. عن عوامید الأرْتِيكْ التي يعود لها الصنيع في استدعاء الشمس يومياً إلى الأرض بمواظبة لا زيغ فيها. عن مفاتيح الألغاز وغرف المعرفة الغنوصية المشيدة في العرش السماوي. عن الصفات المثلى لإنسان المدينة الفاضلة كما وضعها الفارابي. عن دلالات بيوت الفلك وشمائلها عند إخوان الصفا. عن البكاء سخيّ الماقي لرجل الفضاء كاكارين على كلبته لايْكَا داخل المركبة سبوتنيك، وعن نبأ العثور خلال الزمن الحديث على أقدم جمجمة لإنسان عاقل على وجه الأرض في جبل إِيْغُودْ بالمغرب تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وأنا أوشك أن أطبق على جنبي الكتاب الخلاب المختصر لتقويم تواريخ الوضع البشري بأبطاله البواسل أو بسقطاته المنكرة، بمكاشفاته وحدوسه، بوصاياه واستعاداته، رفعت ناظري عبر زجاج نافذة الحافلة، فتطلعت في البعيد، في البعيد المرصود بالعين المجردة إلى مدينة عملاقة مترقرقة بالحياة والأضواء والحشود، يحرس مداخلها الجنود والعسس بالدبابات والآليات العسكرية الثقيلة. وفي ضواحيها رمقت طيوراً وحمائم ونوارس وثعالب وقططاً وكلاباً وضفادع ونموراً وفيلة وزرافات وتماسيح كانت ترفل مغتبطة وترتع طليقة بين الزهور والأقاحي والعشب الأخضر المزهر.

لا أعلم إن كانوا سيسمحون لنا بالنزول وزيارة المدينة المقلبة بكومالا أو حتى الإقامة فيها، لكني أعلم من خلال ما استقيته من مغازي الكتاب المسفر بالجلد البرتقالي، أن البشر الذين يسكنون هنا مبجلون عظام الهمة، وقادرون بعلومهم المستخلصة من دراية الإنسان عبر كل الدهور، على إرجاع نعمة الحياة إلينا نحن الموتى!

- الغلاف المرافق للنصّ، هو لرواية «بيدرو بارامو» للقاص والروائي والمصور الفوتوغرافي وكاتب السيناريو المكسيكي متطير الشهرة خوان رولفو (1917-1986)، الذي يعد الأب الروحي لتيار الواقعية السحرية. [هامش من الكاتب].

(*) الجزء 12 من متوالية سردية بعنوان: «أرخبيل الفزع»، قيدَ الكتابة.

قصيدة

إدوارد أسادوف (*): ما أكثر من يمكن أن تستلقي معهنَّ في الفراش..

ترجمة **نوفل نيوف**

ما أكثر من يمكن أن تستلقي معهنَّ
في الفراش
ما أقلّ مَن تتمنّى أن تستيقظ معهنَّ
لتلتفت عند الفراق في الصباح
ملوّحاً بيدك وتبتسم،
وأن تنتظر أخبارهنَّ بلهفةٍ طول
النهار.

ما أكثر من يسهل معهنَّ العيش،
شربُ قهوة الصباح، والحديثُ
والجدل..
مع من تستطيع السفر لتستريح على
البحر
أن تكونا معاً، كما ينبغي، في السرّاء
والضرّاء..
إنّما من غير حُبّ..

ما أقلّ من تتمنّى أن تشاركهنّ الحُلم!
مراقبةَ الغيوم الحوّامة في السماء،
كتابةَ كلماتِ الحُبّ على أوّل ثلج،
وألا تفكر إلا بذلك الإنسان..
ألا تعرف ولا تتمنّى سعادة أكبر.

ما أقلّ من يمكن أن تصمت قليلاً
معهنّ،
مَن تفهمك من همسة، من طَرفة عين،
مَن لا تَضنُّ عليها بحياتك عاماً تلو
عام
مَن تستطيع في سبيلها أن تتقبّل،
مثل جائزة،
أيّ ألم، أيّ موت..

وأن تدوز العَجَلةُ على هذا المنوال:
أن يتلاقى الناس بسهولة،
وأن يفترقوا من غير ما ألم.
كلّ ذلك لكثرة مَن يمكن الاستلقاء
معهنّ في الفراش
كلّ ذلك لقلّة من تتشوّق لأن تستيقظ
معهنّ جنباً إلى جنب..

(*) إدوارد أسادوف (1923–2004) شاعر وقاص روسي من أصول أرمنية. فقدَ بصره في الحرب (4 مايو 1944)، تابع دراسته الجامعية، وأصدر في حياته 47 كتاباً.

دافيد كنيدي ــ «مَنْزِلة في بَرَاغ» (ألوان مائية على ورق، 2016)

مذكرات

زياد كاج... شاهد على مجزرة صبرا وشاتيلا

بول مخلوف

فور دخولك رواية زياد كاج الجديدة «أمر فظيع يحصل» (دار نلسن)، يتضح لك حجم الفاجعة التي تنتظرك. الصفحات الأولى من المقدّمة كفيلة بأن تكون بياناً رسمياً واضحاً عمّا الكاتب إلى الإدلاء به لتفهم مباشرةً سبب هذه الرواية وموضوعها. إنّها مجزرة صبرا وشاتيلا «التي يجب أن لا تُنسى وأن تبقى ماثلة»، وشخصية الراوي المجبولة بأحداث حقيقية تجلّت في عمله على طريقة اعترافات تنبثق من الصميم، يرويها الكاتب/ البطل. اعترافات ناتجة عن «تجربة شخصية مبنيّة على أحداث وتجارب حقيقية».

صحيح أن واقعية هذا العمل مستمدّة من هذه التجربة الشخصية الموحشة، إنّما التصاق الكاتب ببطله والتقاء غايتهما في كتابة رواية تسرد أحداث مجزرة صبرا وشاتيلا والدائرة الزمنية التي تحيط بتلك الحادثة الضارية، أضفت بعداً حقيقياً ملموساً نجحت في نَقل المشهد على طبيعته، ليكون نصّه محسوساً، مادة خاماً نُزع عنها التجريد، ولنكون قد حظينا بنوع كتابة قريبة إلى السيرة الذاتية، إلّا أنّ زياد كاج أحبّ أن يجعل منها رواية.

وكان من الأجدر للكاتب أن يختار طريقاً مغايراً عن الرواية. إذ لا يفتقر إصداره إلى لغة الأدب فحسب، بل إلى مقوّماته الأساسية. في «أمر فظيع يحصل» قطيعة تامة مع العناصر التي تجعل الرواية عملاً فريداً بعيداً عن الحكاية والكلام غير «المكودر» بإطار شكلي، نسق ما يسوّغ المضمون. والرواية بعيدة كلّيّاً عن العامل النفسي تفتقر تماماً إلى الوتيرة الذاتية التي يجب أن تتحلّى بها على الأقل الشخصية الرئيسية. أسلوبه السردي أقرب إلى الشفهية، فيه من السلاسة ما يجعلك تعتقد أنها عمل أُنجز بسرعة. وتستنتج أنه غفل في بعض الفصول عن إدراج المزيد من الأحداث والاسترسال بها أو حتى تكثيفها في حين أنه استبدلها بتصريحات ووثائق ليكون قد انتقل من السرد إلى المقالة ومن ثم إلى التوثيق، مستعيناً بمراجع مثل كتاب بيان نويهض أو مذكرات الطبيبة السنغافورية سوي شانغ ان. هكذا، يخلع السرد طابعه الروائي ليتحوّل فجأة إلى نصّ توثيقي بحت. لكن يبقى موضوع هذه الرواية أساسياً ومهمّاً، جريئاً ومحزناً، ويكون لمن عايش ذلك الحدث بحذافيره وضحّى بحياته في سبيل تلك القضية، كالمؤلف، امتيازاً للكتابة عنه.

إذاً، نحن أمام اختبار حقيقيّ مدوّن، شهادة حيّة يدليها أحد الناجين من فظاعة الموت، شخص اختبر حدثاً استثنائياً يشبه إلى حدٍّ بعيد فيلم رعب من الطراز الرفيع، شخّص تعلّم «مهنّة دفن الموتى» دون إرادته.

موظّف كادح ودمث يعمل في مكتبة الجامعة، يتنزّه بين رفوف الكتب أو يجهّز القهوة لزملائه إبّان فترة الاستراحة، يفاجأ في أحد الأيام بزيارة صديق قديم له يُدعى الكابتن غسان. الأخير رافقه في أحلك الأيام وأعزّها على قلبه. برعا سوية في تأدية واجبهما في الماضي، واستطاعا أن يكونا من الجنود المجهولين في ساحة المعركة لتعود به الذاكرة إلى الوراء وتلاحقه أدق تفاصيل تلك المرحلة: جثث القتلى الذين سقطوا في مجزرة صبرا وشاتيلا، الدماء، رائحة الموت وكل ذلك النفق المعتم الذي يأخذ في نزهة سريعة إلى الجحيم. هنا، يقرّر أن يكتب رواية يسرد فيها تجربته كمتطوّع في الدفاع المدني مع زمرة أخرى من الأصقاء، ويفصح فيها عن تفاصيل ذاك الزمن وأحداثه الكاحلة.

هكذا تبدأ الرواية التي تتقسم إلى ثلاثة وعشرين مقطعاً، بأسلوب بسيط غير متكلّف، يتقلّب بين السرد الكلامي والمعالجة الصحافية حتى تكاد تشعر كأنك تجالس زياد كاج في مقهى عتيق وتسمعه يتمغّن.

تخضع الرواية لزمنين مختلفين: الحاضر الذي يمرّ فيه بطلها حيث يعاني من سطوة شعورين متناقضين، خوف من كتابة رواية تتطرق إلى موضوع يصرّ كثيرون بنظره على أنها عمليّة نبش قبور، حفر عميق في الجراح، وشعوره بمسؤولية تدوين ما رآته عيناه من معاناة ووحشية كأنّها مهمة أخرى أوكلت إليه بعد مرور كلّ ذلك الوقت. بين الاندفاع العاطفي/ الذاتي للغوص من جديد في كوالیس الماضي من جهة وبين الخوف من انعدام جهوزية الظرف المناسب لكتابه والتيقّظ العقلاني لخطورة بوحه الحقائق من جهة أخرى، تجد أمامك شخصاً مترنّحاً بين مزاجين مختلفين. إلّا أن تدفق سرده والمسار الذي خطا عليه، يبيّنان استسلامه لرغبته في دخول معترك إخبار ما حصل، فيحلّ ماضيه بكامل ثقله ويهيمن بأحداثه على الرواية.

وبينما يتغير طابع السرد انصياعاً للحركة الزمنية، إلّا أن الكاتب يفاجئك بأسماء الأشخاص الذين يذكرهم وتربطهم به صلة وصل، فتتأكّد من جديد أنك أمام ذاكرة منغمشة وحيّة تشكل وسيلة هذا العمل وغايته معاً. هو لم يتحفّز لكتابة روايته فقط لأن صديقه كابتن غسان زاره فجأة وأيقظ فيه مشاعر دفينة، نوستالجيا تتلاعب بين الحنين والألم، بل لأنّ مدخل مخيم صبرا وشاتيلا لم يعد كما يتذكره. لقد بات ساحة عامة لألبسة البالة وفضاء عامّاً كأيّ منطقة شعبية. بالنسبة إلى كاج، تجارب الإنسان هي ما يصنعه، ونحن أمام انتهاك مشين لمقبرة طمرت ذواتاً مظلومة، بريئة ومغدورة وتحولت كمكان يقصده الروتين اليومي ويزوره المتيضعون.

شهادة حيّة يدليها أحد الناجين من فظاعة الموت

تستمر في قراءة الرواية بحثاً عن حبكة أو منعطف يأخذك إلى هاوية درامية لكنك لا تجد. ما تحصل عليه في الفصل الثاني عشر، يشكّل وحده ملحمةً طويلة شاجنة. بعد حصوله على قرص «دي-في-دي» من مكتبة الجامعة يحتوي على توثيق أتى على شكل مقابلات جرت مع مقاتلين اقتحموا مخيم صبرا وشاتيلا (فرق عسكرية تابعة للقوات اللبنانية وحلفائها بمساعدة إسرائيل)، يكشف لنا بطل الرواية ما أدلوا به من اعترافات وتصريحات. فتك عنيف بالأجساد، لحّام يذبح الرقاب في سكين، أنين الأطفال، مقاتل يطلب ممن فيه مشاعر دفينة، نوستالجيا تتلاعب بين الحنين والألم، بل لأنّ مدخل مخيم صبرا وشاتيلا لم يعد كما يتذكره. لقد بات ساحة عامة لألبسة البالة وفضاء عامّاً كأيّ منطقة شعبية. بالنسبة إلى كاج، تجارب الإنسان هي ما يصنعه، للسخط العارم. كان لبطل الرواية دور في اللفة الجثث، في أن يعطي للموت حرمته، في أن يتعامل مع آثار تلك الغرائز المتوحشة الدامية لأشخاص أسماهم «دواعش ما قبل داعش».

لم يفارق هذا الحدث بطل الرواية أبداً. بقي أسير تلك الليلة. الأثر النفسي القاتم الذي سبّبته له وظيفته وتجاربه في زمن الحرب، اجتاحت كيانه وتشبّثت في عقله وجثمت على ذاكرته، ولم يكن هناك أيّ مسعف سوى أن ينذر نفسه لكتابة رواية تكون بمثابة عملية انتقامية تردّ الصاع صاعين. إلّا أنه بعد التخبّط والتردّد في كتابة الرواية من عدمها، قرّر بطل زياد كاج الانكباب على هذا المشروع. لا تعود أسباب قراره إلى أنه أصغى إلى آراء رفيقه الكابتن غسان أو زميلته في العمل المصرّة على أن الزمن الراهن لن يستقبل بذراعين مفتوحتين كتاباً مماثلاً، بل لأنّه تنبّه إلى ما يخالج أصدقاءه المقرّبين من مشاعر. بعد مرور كل هذا الوقت، بات الماضي يثير فيهم شعوراً بالإخفاق والشجن. الخيبة من النتيجة، مأساة الواقع ومرارته حيث لا ذكرى سنوية أصلاً تقام كرمى هذه الفاجعة. سقوط مخيم صبرا وشاتيلا على يد وحش قتل بالفأس وبلع أرواح الأبرياء، هزيمةٌ نكراء لكل معنىً بالقضية الفلسطينية والإنسانية. لكن المحيط الضيق الذي اعتقد بطل كاج أنه ما زال ينعم بذلك الإرث قد تغيّر بالكامل. الكل مشغول بالتفاصيل اليومية، الجميع يحمدون القدر على نجاتهم ويريدون مواصلة العيش وعدم الاقتراب من الموت ولو كان ذكرى.

في كلماته الأخيرة في الرواية، يُفصح البطل عن استنتاجه الأخير: «أحداث مجزرة صبرا وشاتيلا تحتاج لصفحات وكلمات وعبارات غير متوفرة في القاموس اللغوي الذي تراكم عبر التاريخ البشري». هو فاقد للكلمات إذاً، عاجز عن التعبير، تعلّقه بفلسطين لا يجذره الكلام. لكن ما هو جدير بالذكر أنه تصالح مع حاضره، ولو بطريقةٍ رمزية، ففي صباح يوم أحد مشمس، كان هناك مارثون يبدأ من بيروت ويسير جنوباً، فيه يتوجه الراكضون نحو أرض أجدادهم. إنه الحلم بالعودة الذي يقوى على كل تعبير.

رواية

«الاشتياق إلى الجارة»: السرد الحميم

نسرين حمود

تجتمع العاديّات في نسج بنيان «الاشتياق إلى الجارة» (دار الآداب)، للروائي التونسي الحبيب السالمي، وتحتلّ لب السرد، على لسان كمال عاشور، الراوي، وبطل الرواية، الذي يُغرق الصفحات في دقائق يوميّات حياته، وزوجته بريجيت.

هما فرنسيّان في العقد السادس من عمريهما، ينتميان إلى الشريحة العليا من الطبقة المتوسّطة، ويسكنان شقّةً في بناء هوسماني الطابع، في باريس، البناء، الذي تدور غالبيّة أحداث الرواية فيه، ثمة ما يجعل قارئ «الاشتياق إلى الجارة» يستعيد رواية «المنور» للبرتغالي جوزيه ساراماغو، أقلّه لتشابه المكان الذي تدور فيه الأحداث، أي البناء، بطبقاته، وبيوته، مع اختلاف الأزمنة، لو أن الإشارة الواضحة إلى الزمان غائبة عن رواية السالمي، باستثناء بعض المحطات التي تفيد براهنيته (تخفيض الحكومة الفرنسية لساعات العمل).

يعمل كمال أستاذاً جامعيّاً لمادة الرياضيّات، وهو من أصول تونسية، لكنّه منغمس في الحياة الباريسية حتّى أذنيه، فيما بريجيت الفرنسية، موظّفة في بنك. وللثنائي ابن شاب غادرهما، واستقلّ في حياته عنهما. قلّما يكدّر أمر ما حياة الزوجين المضبوطة على إيقاع ساعة سويسريّة، بيد أن تولّي الجارة زهرة التي تسكن الطبقة الخامسة، شؤون منزل المسنّة «مدام البير»، في الطبقة عينها، حيث شقّة الثنائي، يغيّر مسار الأمور.

زهرة متزوّجة من تونسي يتفق سكّان البناء على أنّه غريب الأطوار، ولهما ابن شاب يعاني من إعاقة. هي متفانية في عملها. مسلّمة، أمّية، هاجرت إلى فرنسا منذ زمن بعيد، وتلاقي الاحترام من جيرانها، الذين يستعينون بها في أداء الأعمال المنزليّة.

تبدأ الرواية من الحديث عن نسبة الفرنسيين كلّ ساكن في البناء لجنسيته؛ زهراء تونسيّة، و«مسيو غونزالس» إسباني، و... ثمّ، تتالى الأحداث عن لعبة الإغواء المضبوطة بين كمال وزهرة، بخاصّة أن الأخيرة طلبت إليه أن يعلّمها القراءة والكتابة بالعربيّة، بعد فراغها من العناية بمنزله كلّ أسبوع. لكن، سرعان ما تفلت الأمور من يد «سي عاشور»، لتتحوّل لعبة الغواية إلى حبّ المسنّ خادمته. حبّ يطرق قلبه بقوّة، ويسيطر على أفكاره، ويوشك على قلب حياته الزوجيّة. حب يحوّل الأستاذ الجامعي، الذي لا يترك مناسبة أثناء حديثه إلى ذاته لتبيان رفعة شأنه وتقدّمه على زهراء في كل المجالات، إلى مراهق يتأمل وجهه طويلاً في المرآة. حبّ يضغط عليه حتّى يسير في جنازة فرنسيّة. حب كان على بعد أنملة عن التخلّي عن طابعه الأفلاطوني. حب فيه أحاديث عن تونس شبه المسّية من المهاجرين البورجوازيين، وتونس حلم العودة من المهاجرين محدودي الدخل. تونس بورقيبة الذي كان يلزم البنات دخول المدارس. وتونس المقبرة بعد سنوات الاغتراب.

تفتح التفاصيل اليوميّة في الرواية التي تتضمّن الكثير من دواخل نفس كمال، ومكبوتاته، وبرودة الحياة الباريسيّة، نافذةً على المهاجرين العرب في فرنسا. كان «سي عاشور» يفتح الحبيب السالمي نافذةً على المهاجرين العرب في فرنسا

للحريص للغاية على صورته أمام معارفه، يعتقد أنّه فرنسي خالص بعد كل هذه السنوات من إقامته الباريسيّة، وانخراطه في مدينيّتها، وأنّه في منأى عن مسألة فرز الجنسيات، إلى حين تنبّه إلى أنّ الجميع لم يتخلّ عن نسبه إلى وطنه العربي، سواء «مدام البير» الجارة الغنيّة حين تطلب تدخله لنجدة زهرة من زوجها المعنّف (أنت تونسي مثله، أليس كذلك؟: الصفحة 79)، أو حتّى زوجته (عجيب أمركم أنتم العرب! (...) كم تحبون الحديث عن بعضكم البعض ـ الصفحة 90).

يُدخل السالمي القارئ عبر بطله كمال، ضابط إيقاع السرد الذي لا يخلو من حميميّة، إلى عالم روائي محاك بأسلوب بعيد عن الاستعراض اللغوي، أو الحذلقة. هو يعيد قصّ البديهيات، بعيداً عن أي خطب عصماء أو رسائل مباشرة. يصف، ويبالغ في وصف المعاش، ودواخل البيوت، والمستور، والمُملّ الكامن خلف الأبواب الفخمة. يسترجع قصّة الطبيب صالح الشهيرة «عرس الزين»، التي أحبتها زهرة لغلافها، لدورها ربما في تكثيف السرد عن الحب والزواج، «الثيمة» الطاغية على رواية السالمي، أو لتشابه منصور (زوج زهرة) غريب الأطوار مع الزين، أقله في شخصيته الغرائبية.

تحفر «الاشتياق إلى الجارة» في حب رجل مسن، وطبقيته، ومآل علاقة غير متكافئة. ترسم شخوصاً ذات ردود أفعال متوقعة، وتضعها في مواقف شائعة الحدوث. تُعلم قارئها بكل معلوم. تحوّل البديهي إلى نصّ لا يخلو من همس وتواطؤ ووُد. إنّها رواية.

سيرة

محمد أبو ميزر: عن القدس والمنفى وفلسطين

محمود شريح *

الأستاذ صقر أبو فخر في جديده «محمد أبو ميزر (أبو حاتم): الجذور والتراب» هو حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة، عقده صقر مع محمد أبو ميزر (أبو حاتم)، في بيروت، وفي فندق «كاڤاليه» بالتحديد، على مدى جلسات عديدة بدءاً من صيف 2018 وحتى صدوره أخيراً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» (الدوحة/ بيروت) مع غلاف أنيق بصورة لمحمد أبو ميزر. حوار عن القدس لأنّ القدس مدرج نشأته، وعن المنفى لنزوحه عن فلسطين وهو في الرابعة عشرة، وعن المنفى لخروجه منها إلى العالم.

يمهّد صقر أبو فخر لحواره بقوله إنه حين يُحرم المرء من بيته، قسراً وعسفاً وغصباً، يتحوّل البيت إلى فردوس مفقود مطرّز بالمخيّلة، وبأبهى عناصر التشكيل والتكوين والتلوين، إذ أنّ تراجم النفس، أي السير الذاتية، إذا لم تكن كشفاً عن المسكوت عنه، وإزاحة للأستار عن الأسرار، فإنّ قيمتها تبقى محدودة.

هذا الحوار مع محمد أبو ميزر هو بالتأكيد نوع من السيرة. إنه سيرة حوارية تكشف الكثير من خفايا السياسات الفلسطينية التي عرفها أبو حاتم، أو اكتشفها في سياق نضاله الوطني، أو شارك في صنعها منذ التحاقه بحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) منذ 1962. إنه حوار استعادة للمكان الأصلي، القدس، والجولان في المنفى، على مدى نحو نصف قرن من الزمان.

كان مولده في الخليل عام 1936 ثمّ انتقل مع عائلته إلى القدس عام 1944، وهناك درس قبل انتقاله إلى جامعة القاهرة. وفيما انتمى عام 1951 إلى حزب البعث وخرج منه عام 1961 إثر الانفصال إلى لبيبا فالكويت حيث التحق بحركة فتح إثر لقائه برفيقه البعثي فاروق القدومي (أبو لطف) وزوجته البعثية نبيلة النمر، كان أبو لطف قد سبقه في الانتماء إلى فتح. في 1963 إلى الجزائر إثر استقالاتها مباشرة، فالتقى هناك بخليل الوزير (أبو جهاد)، فاتّخذت علاقته بحركة فتح طابعاً تنظيمياً ثابتاً. في الجزائر، تعرّف إلى معظم قادة الثورة الجزائرية والتقى تشي غيفارا في أثناء زيارته الجزائر عام 1964. في 1968، عيّنته فتح أول ممثّل لها في أوروبا على أن تكون باريس مقرّه وفيها صاغ بيان «الدولة الديمقراطية العلمانية» في فلسطين، وهو الذي صار أحد ركائز الالتزام الفلسطيني بشأن تحرير فلسطين ومستقبل اليهود في دولة فلسطين الحرّة والديمقراطية والعلمانية.

تعرّف إلى معظم قادة الثورة الجزائرية والتقى تشي غيفارا عام 1964

من مولده في الخليل إلى نشأته في حارة النصارى في القدس ومنه في 1956 إلى جامعة القاهرة عبر مطار قلنديا، لم يزر القدس منذ ذلك الحين حتى 1997 حين عاد إليها مع زوجته مي السايغ.

من إيمانه بالوحدة العربية، انضمّ أبو ميزر إلى حزب البعث وقراءة الفلسفة الوجودية ثم لقاء ميشيل عفلق في القاهرة عام 1959، فإلى الكويت والانضمام إلى حركة فتح، وحضور مؤتمرها الأول إثر حرب حزيران 1967 في منطقة ركن الدين في دمشق، وتحديداً في بيت خليل الوزير (أبو جهاد)، بحضور ثمانية وعشرين شخصاً فيهم خالد الحسن (أبو السعيد) ومحمود مشوّدة... وإلى باريس والمناداة بالدولة الديمقراطية العلمانية وعقده حوارات مع مكسيم رودنسون وجاك بيرك وغيرهما، ومشاهدته عن كثب ثورة الطلاب في أيار 1968، وتعرّفه إلى فؤاد الشمالي (1934-1972)، وتسليمه بيان حركة فتح عن الدولة الديمقراطية إلى وكالة الأنباء الفرنسية AFP ليلة 1968/12/31 وإذاعته صباح 1969/01/01.

صوب نهاية حوار الأستاذ صقر مع أبو حاتم، كان لا بدّ من العودة إلى المنشأ، إلى المشرق، وكشف أسرار وحقائق ووثائق يوردها في نهاية حواره مع صقر أبو فخر يعيد النظر محمد أبو ميزر في تجربته، فيرى أن قضية فلسطين طالت في الزمن وتطاولت جداً، وأن الأوان قد حان لوضع حدّ لآلام الفلسطينيين.

هذا الحوار الغني هنا تحفيز الذاكرة على التذكّر في سياق متتابع وتوليدي، كانت غاية الأستاذ أبو فخر منه تسجيل خلاصة الخبرة الطويلة لمحمد أبو ميزر، أبو حاتم، في الحياة وفي السياسة، وفي المصائر المتعاكسة للناس الذين عرفهم وعمل معهم، وفي الأماكن التي عاش فيها وغادرها إلى أماكن جديدة، مع إقرار الأستاذ أبو فخر أن التاريخ الفلسطيني كتابة تراكمية دائمة.

* باحث وأكاديمي فلسطيني

إيمان اليوسف **قيامة الأنا وشتات السرد**

سومر شحادة

تخبرنا الكاتبة الإماراتية إيمان اليوسف في روايتها «قيامة الآخرين» (دار ممدوح عدوان ودار سرد) عن اضطراب نفسي؛ يجعل بطلتها ترى الوجوه كافة بصورة رجل ملتح. تبني الكاتبة باستخدام هذه الاستعارة البسيطة والذكية رواية عن المخاوف التي تتحكم بالناس.

قبل الشروع بالحديث عن الرواية، لا بدّ من التنويه إلى أنّ الرجل الملتحي ليس إشارة إلى الإسلاموفوبيا، وهي واحدة من إشكاليات هذا العصر، كما يتبادر الآن إلى أذهان من قرأ السطور الأولى. إذ بدت الكاتبة مصرّة على تجاوز عثرة سوء الفهم هذه، بأن تؤكّد على أنّ ملامح الرجل الذي يحاصرها هي ملامح إلهٍ إغريقي. على الرغم من الرهاب الذي تصاب به، وهي ترى الوجه وقد تراكب على وجه زوجها ووالدتها وزملائها في العمل، إلا أنّها تعود لتؤكد وسامته. إذ لا تنفر ميعاد، بطلة الرواية، من القبح، بقدر ما تنفر من التشابه، وفي غمرة هذا التشابه ينشأ مبعث الرواية، وهو قيامة الفرد في وجه الآخر أو إزاءهُ، ليعلن عن وجوده، قيامة الأنا مقابل الآخر، سواء كان الآخر جحيماً أو فردوساً. يُدرك القارئ أهمية النص ما أن يخلّصه من نزعة الكاتبة لرمي معارف شتى في متنه، بحثاً عن أصالة تسنده إليها. إذ بينما يبحث السرد عن آباء ويرنو الركون إلى هوية خاصة، راحت الكاتبة تضعفه في سعي عاثر، وقد نما في اتجاهات متباعدة. فالرواية اجتماعية تحكي عن مصورة فوتوغرافية تعمل في أرشيف واحدة من الصحف الإماراتية. زمان الحدث هو الأزمة الخليجية مع قطر، وهذا لا يمنع من العودة إلى الحرب العراقية الكويتية، ثمّ تقرأ الكاتبة الواقع برمته، وفقاً لميثيولوجيا إغريقية أحياناً، وأحياناً أخرى وفقاً لطوفان نوح... لكن رغم ذلك، يبقى النص ممهوراً بطابع غريب وخاص؛ عن فتاة تأنف التشابه الذي يسود عصرها، تصاب باضطراب نفسي يدعى «البروسوباجنوسيا»، يبدأ بسيطاً ثمّ ينمو ويتطور مع نمو الحكاية التي تشبه السقوط، وقد عززته الكاتبة باستخدام جمل قصيرة، متتابعة، سريعة، ليكون السقوط متلهّفاً لوصول النهاية، التي تعيدنا إلى البداية، إنّها حكاية دائرية عن سقوط متعاقب للأفراد ضمن الجموع، سقوط لا يلبث أن يرهق الإنسان.

يدفع اقتراب زوج ميعاد منها ليلاً إلى الهروب من المنزل، وتبليغ الشرطة عن وجود رجل غريب في المنزل، وقد سرق رائحة زوجها وصوتهُ. بهذه المقدمة المثيرة تبدأ الكاتبة روايتها. يتتالى بعد ذلك مزّق ميعاد، إذ ستترى والدتها بصورة الرجل الملتحي، وستراه في الوجه كافة. يتخلّى عنها زوجها، يأخذ طفليهما ويسافر إلى قطر. تكاد تفقد عملها في الصحيفة الإماراتية، إذ لم تعد قادرة على اختيار الصورة المناسبة لموضوعات المقالات. تسافر إلى الكويت كي تلتقي مع زوجها وطفليها القادمين من قطر، وهناك، في الكويت سوف تلحق بالرجل الملتحي وهي تعتقد أنّها أخيراً وجدتهُ. تنتهي في المستشفى، وتخسر مجدداً فرصة الحياة مع زوج وأبناء. ما أن غابت الوجوه عن ميعاد، حتى غابت عنها هويات أصحابها، لتعود وترى في مكان آخر أنّ الملامح «وسائل تشتيت». بذلك، كأنّ ميعاد تريد الفوز بالجوهر، وهو جوهر، تظنّه، متميزاً بين فرد وآخر. من هنا بالضبط، يمكن فهم نداء الفردانيّة الذي يتوارى بعيداً وراء طبقات سرد اتّسم بالفوضى. حكايا ترميها الكاتبة عن نفسها وعمن يعيش معها، والدتها وزوجها وشقيقتها التوأم وأشخاص تأتي بهم من المجهول وتعيدهم إلى المجهول من غير وظيفة سردية لازمة. حكايا عن شغب المدارس والطفولة البعيدة، عن العادات وعن الإمارة التي تسكنها وشجرة الدلب في مشتى الحلو! إلّا أنّ أكثر تلك الحكايات أصالة هي حكاية شقيقها المتوفى، وقد بدأ رحيله لغزاً راح ينمو مع تطور الحالة المرضية لميعاد قبل أن يتكشف اللغز. فقدت الأسرة الابن في عمر صغير، ورافقته ذكراه طوال حيواتهم، حتى أنّ ميعاد، ما أن ترجع من الكويت في الجزء الأخير من الرواية، تستقر في غرفته. ما أن تتقطّع خيوط الذاكرة لديها وتتراءى على وجوه غريبة، تعود لتلعا إلى أكثر مواطن ذاكرتها هشاشة، وفي ذلك الميل الإنساني للبراءة مع انكشاف ما هو معقد ومركب ومفتعل وزائف، تنجو الرواية مجدداً من الأعباء التي أثقلت بها الكاتبة الحبكة الأساسية.

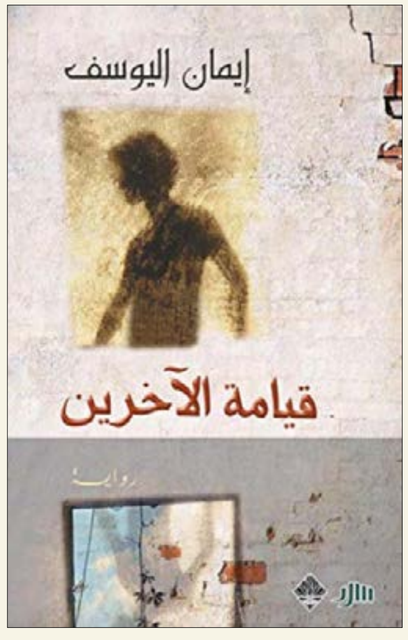

تساؤلات حيال الموت والذاكرة، والمستقبل وعودة الماضي

في واحدة من الجمل المفتاحيّة في النص، تعبّر ميعاد عن نفسها «أنا خوف مؤجل يتداعى». تفسيراً لهذه الجملة، تفكك الكاتبة ذلك الخوف المبهم، تعيده إلى مخاوف وتساؤلات جزءٌ منها مخاوف وتساؤلات عامة؛ حيال الموت والذاكرة، والمستقبل وعودة الماضي، والجحيم الذي يستقي الجميع مفهومهم الخاص، عن الآخر، منهُ. ما أن تفكك الكاتبة ذلك الخوف المبهم الملقى بهيئة رجل ملتح على وجوه الجميع، حتى تتفسّخ بطلتها ميعاد، وتتحول أيضاً إلى الوجه الملتحي لذلك الإله الإغريقي، الوسيم، التائه، المرمي في وجه الجميع كما لو أنّه لا أحد، لا هو الأنا ولا هو الآخر، وإنّما هو القناع الذي لا ينحتهُ الزمان ولا تغيرهُ السنون.

أوراق

هل عبرَ خشب المراكب العربية ممرّ بيرينغ الشمالي؟

زكريا محمد *

لدينا فقرة مثيرة من السيرافي في كتاب رحلات أبي زيد السيرافي. والسيرافي مؤرخ وجغرافي، كلِّف بتحرير كتاب رحلة «سليمان التاجر» إلى الهند والصين، فحرره مضيفاً إليه فصولاً. وقد صدر الكتاب بتحقيق تيم ماكنتوش- سميث بعنوان «رحلات أبي زيد السيرافي: كتاب أخبار الهند والصين»، وضمت إليه رحلة ابن فضلان الشهيرة. والسيرافي منسوب إلى سيراف، الميناء الشهير في الخليج العربي. ويقع الميناء على الجانب الإيراني من الخليج، قرب مدينة بوشهر على وجه التحديد.

تقول الفقرة المقصودة:

«ومما حدث في زماننا هذا، ولم يعرفه من تقدمَنا، أنه لم يكن أحد يقدّر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام، ولا يقوم في أنفسهم، حتى كان في عصرنا هذا. فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسّرت بأهلها، فقطّعها الموج، وساقتها الرياح بأمواج البحر، فقذفته على بحر الخزر [بحر قزوين]، ثم جرى في خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الروم والشام [البحر المتوسط]. فدلّ هذا على أنّ البحر يدور على بلاد الصين والسيلا [كوريا] وظهْر بلاد الترك والخزر، ثم يصب في الخليج ويفضي إلى بلاد الشام. وذلك أن الخشب المخروز [المخاط بخيوط خاصة] لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة. ومراكب الشام مسمورة [ملصوقة بالمسامير] غير مخروزة».

وكما نرى، فقد افترض السيرافي أن خشب السفن العربية المخروز، لم يأتِ من بحر الصين إلى المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، عابراً من ثم إلى «بحر الروم» أي الجهة الغربية من البحر المتوسط. بل افترض أنه مرّ بطريق أخرى معاكسة، تلتفّ حول الصين وسيبيريا، ثم تعبر إلى المحيط الهادي فالمحيط الأطلسي، ومن هناك إلى بحر الخزر، فالبحر المتوسط.

بالطبع، هذا غير ممكن لأن بحر الخزر (بحر قزوين) بحيرة مغلقة، ليس لها اتصال بأي بحار أخرى. لكن يبدو أن السيرافي حين يتحدث عن «بحر الخزر»، فإنما يقصد بذلك «البحر الأسود» لا «بحر قزوين». أي أنه يسمي البحر الأسود بحر الخزر. دليل ذلك أنه يقول إنّ الخشب خرج من بحر الخزر و«جرى في خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الروم والشام». وخليج الروم هنا هو مضيقا البوسفور والدردنيل. وقد سماهما خليجاً لأنه اعتبرهما لسان لبحر الروم، أي البحر المتوسط.

لكن هذه الفرضية أيضاً خاطئة. فالبحر الأسود ليس مفتوحاً على الأطلسي. فهو مرتبط ببحر آزوف، الذي هو قطعة منه عملياً، وبالبحر الأبيض المتوسط فقط. أي أنه عملياً بحر داخلي، أو بحيرة ما. بالتالي، فخشب السفن العربية الخروز لا يمكن أن يكون قد أتى إليه من المحيط الطلسي، لكي يعبر إلى البحر المتوسط.

البحر الاسود وبحر آزوف وبحر الروم

بذا، فالمنطقي أن نفترض أنّ هذا الخشب جاء من الخليج العربي، ثم دخل بحر العرب، ودار حول أفريقيا من بحر الصين كما افترض السيرافي، فإنه يكون قد عبر بحر الصين إلى المحيط الهندي، ثم دار حول أفريقيا، وعبر من ثم إلى البحر المتوسط.

وقد افترض أحد أصدقائي أن السيرافي بنى فرضية المسار الشمالي المار من وراء سيبيريا على الملاحة النهرية في القرن العاشر الميلادي (توفي السيرافي عام 330 ميلادية): «لنتذكر أن السيرافي عاش في ذروة عصر الفايكنغ، حيث نشطت التجارة بين الشمال والجنوب عبر الأنهار الروسية الجنوبية، مثل الفولغا والدنيبر، ومنها عبر بحر قزوين والأسود، إلى أسواق بلاد فارس والقسطنطينية. ونعلم من «رسالة ابن فضلان»، الذي سبق السيرافي بنحو قرن، أن حوض الفولغا كان يشكل الجناح الغربي لبلاد الترك، فيما يتصل جناحها الشرقي ببلاد الصين. ويبدو أن عدم تمييز السيرافي بين المسار النهري لتجارة الفايكنغ (الروس) ومسارها البحري تالياً، هو ما زين له فكرة المسار الشمالي» (علي شكري، من تعليق له على صفحتي في الفيسبوك).

الطريف البحري الشمالي

وهذا فرض ممكن في الحقيقة.

مع ذلك، فإن فكرة السيرافي عن عبور خشب المراكب العربية عبر الطريق الذي يسمى الآن «الطريق البحري الشمالي» فكرة مدهشة. وهذا الطريق حديث وصيفي. فمع ذوبان الجليد، يتشكل في القطب الشمالي طريق يمكن الإبحار عبره من الصين إلى مضيق بيرينغ Bering Strait ثم إلى المحيط الهادي ومن ثم إلى المحيط الأطلسي. وقد بدأت السفن الصينية تمخره فعلياً منذ سنوات، كبديل عن المرور في بحر الهند وبحر العرب والبحر الأحمر وخليج السويس والبحر المتوسط، نحو أوروبا.

وقد كان ممر بيرنغ هذا ممراً برياً مفتوحاً بين سيبيريا والأميركيتين، ثم أقفل في الفترة الجليدية بين 13-17 ألف سنة من الآن. وبهذا انقطعت الأميركيتان عن بقية الكرة الأرضية. وقد اقترح السيرافي، في نوبة خيال مدهشة، وجود الطريق البحري الشمالي الذي نتحدث عنه. وهو اقتراح بديع من جغرافي مهموم برسم صورة الكرة الأرضية وحركة التجارة العالمية فيها انطلاقاً من معارف زمانه.

* شاعر فلسطيني